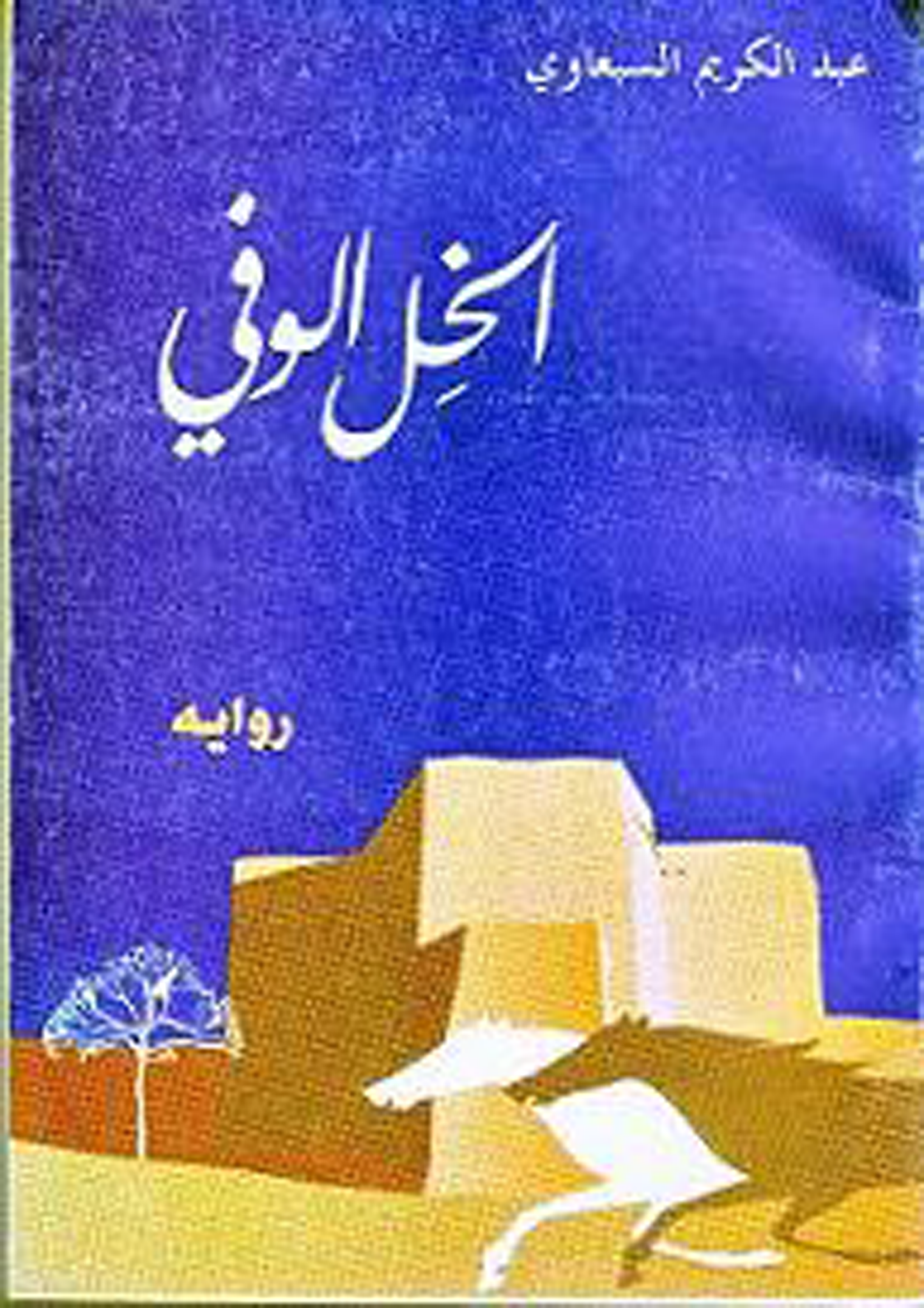

عبد الكريم السبعاوي
الخل الوفي
روايه

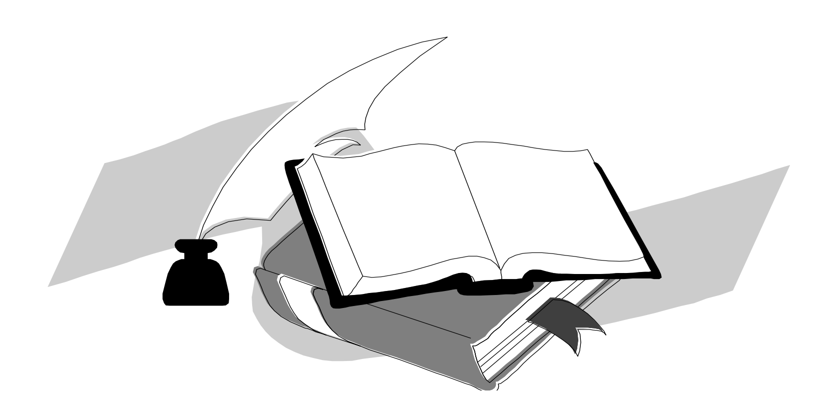
روايـــــه

الخِـلُ الـوَفـيْ

عبدالكريم السبعاوي

أرض كنعـــان (2)
الخِـلُ الوَفـيْ

إلى
شقيقي عبد الرحيم
وفاءً 00 وعرفاناً



" *رواية العنقاء* " الرواية الأولى من ثلاثية أرض كنعان انتهت باندحار نابليون وانسحاب الفرنسيين من غزه إلى مصر 00

" *الخل الوفي* " هي الروايه الثانيه من نفس الثلاثيه وتدور أحداثها بعد ثلاثين عاماً تقريباً من خروج الفرنسيين 00

البطوله في هذه الروايه 00 كما في سائر الثلاثيه هي للمدينه " غـزه " حيث تمتزج عبقرية المكان بعبق الزمان 00 وحيث يتقاسم الناس خبزهم وملحهم 00 فرحهم وترحهم 00 ويواجهون مجتمعين وفرادى 00 أقدراهم ومصائرهم المحتومه 00

الأسماء الغزاويه التي وردت في هذه الثلاثيه سواء أسماء الأفراد أو العائلات 00 وما وقع لهم من الحوادث هو من خيال المؤلف 00 وإذا حدث أي تطابق بين هذه الأسماء وبين الواقع المعاش 00 فإن ذلك يرجع للصدفة المجردة .

كان الظلام حالكاً حين خرج عبد الوهاب من بيته في وادي الزيت يلتمس عمه جوهر .

لم يجده في المضافة 00 ولم يجده في الفناء 00 سأل عنه الغلمان فما أحاروا جواباً 00 حين سار في العدوة التي وراء البيت 00 شم فوح البن مختلطاً برائحة الحطب المشتعل 00 أدرك أن عمه يقيم طقسه الخاص في الخلاء الرحب .

سار مهتدياً بالرائحة حيناً 00 وبصوت الربابة حيناً آخر 00 حتى رأى ألسنة النار مشتعلة تحت شجرة الزيتون الكبيرة 00 اختبأ خلف جذع زيتونةٍ وراقب عمه .

كان جوهر يجلس أمام النار على جاعد خروف أبيض يحزُ على ربابته 00 ويتمايل مع اللحن 00 نفرت عروق رقبته 00 واشرأب رأسه إلى أعلى كأنما سيفارق كتفيه.

قال عبد الوهاب : أخاله يقد اللحن من روحه 00 هذا اللحن ليس من التغريبه 00 وليس من أغاني البدو أو الفلاحين ، ما سمعت شيئاً كهذا في حياتي 00 إيقاعاتٌ مجنونة 00 تعلو ثم تنخفض 00 ثم تعلو 00 كأنها رقص قبيلة مستها الشياطين 00 هذا ما يختزنه عمي في دمه من أصوله الزنجية .

ارتفعت ألسنة النار من الراكيه 00 وبلغ اللحن أوجه 00 استطاع عبد الوهاب أن يرى الدموع الغز يره التي اخضلت بها لحية جوهر البيضاء المفلفلة 00 داخله عليه اشفاق شديد 00 تمنى لو هرع إليه واحتضنه .

-9-

(لشدما كنت أهابه في طفولتي 00 وأحسب لغضبه ألف حساب 00 مع أنه لم يضربني ولم يعنفني مرةً واحده ، يبدو أن هيبته على رجال الوادي انتقلت إلي بالعدوى 00 حفزتني على أن أحترمه

وأحبه ، لم أكتشف ضعفه حيالي إلا عندما أسقطني الحصان على بوابة قصر الخاتون **00** حصانٌ أسود اشتراه جوهر من التفكجي باشا زوج الخاتون بثمنٍ بخس 00 كان مجروحاً في ساقه جرحاً أعجز السواس ظل جوهر يعالجه حتى شفي تماماً قال لي : " هذا الحصان لك 00 سأعيد ترويضه وأدربك على ركوبه " 00 ذات يومٍ تسللتُ إلى الإسطبل وقدتُ الحصان إلى الخارج ، ما إن امتطيت صهوته 00 حتى طار بي كالباشق ، أخذ في وجهه كل شئ ، حين وصل سرايه التفكجي باشا وجد البوابة مغلقه 00 صهل بوحشية 00 دار حول السرايا دورة كامله 00 وعندما واجه البوابه ثانية 00 استجمع نفسه وقفز في الهواء 00 خفيفاً كالجندب .

حين صحوت بعد ذلك كان الصداع يرجني رجاً 00 تحسست ضماد رأسي ، بصعوبةٍ بالغه فتحت عيني 00 رأيت وجه امرأة يسطع كالبدر 00 رفت أهدابها الطويله 00 مدت ذراعها البضه نحوي 00 ربتت بكفها على ظاهر يدي الممدوده إلى جانب السرير 00 أحسست بالدفء يسري من باطن كفها ليغمر جسدي كله ، ابتسمت 00 فتراقصت على جانبي وجهها غمازتان آسرتان 00 تسللت ببصري لأتعرف على بقية المرأه 00 كان عنقها طويلاً 00وطوق ثوبها واسعٌ يكشف عن صدر أبيض كالحليب . هالني كل ذلك البياض 00 مقارنةً بسواد مرجانه الذي تعودت عليه .

-10-

انحنت تتحسس جبيني 00 فركت أذني بأطراف أصابعها " ولد 00 إنتي لازم يبطل شقاوه " .

مسحتُ شفتي العليا 00 حيث طر زغب ينبئ عما سيكون عليه شاربي 00 لأثبت لها أنني لست صغيراً 00 فهمت الإشاره 00 حدجتني بنظرة امرأةٍ تعودت فعل ما يحلو لها 00 ثم قالت تستفزني :

– طز على شنب حظرتكم .

أيُ إمرأةٍ هي الخاتون زوجة التفكجي باشا 00 ما أشد الفرق بينها وبين نساء الوادي 00 اللواتي كن يركعن كلما مررت بهن 00 أو يركضن في كل اتجاه عند أدنى إشارة من يدي 00 ولا يلفظن إسمي إلا مسبوقاً بالدعاء (الحافظ الله وهبه) 00 بقيتُ في سرير الخاتون حتى استبدلت جرح الرأس الذي شُفِي 00بجرح القلب الذي لا شفاء له) .

اشتدت إيقاعات اللحن الهمجي على ربابة جوهر 00 حتى خيل لعبد الوهاب أن الربابة لم تعد تسعف صاحبها وتلبي جموحه ، ثم رأى عمه يطوح بالربابه على طول يده 00 خلع ملابسه إلا من إزار يستر العوره ، ثم انتصب بقامته المديده كقامة الوثن ، وبدأ في التطوح شاهراً بيده عصاً طويلة يوجهها كما لو كانت رمحاً يطاعن به عدواً مراوغاً ، كان يطعن وهو يزوم 00 ثم يزوم ويطعن :

– أوه 00 أوه 00 أوه

يعاود التلوي كالممسوس ويقفز أعلى فأعلى 00 إنها رقصة الحرب التي علمتها له النجاشي في طفولته .

خُيِلَ لعبد الوهاب أن قفزات جوهر ستتجاوز عنان السماء ، ظل هذا حاله حتى أدركه التعب ، فتداعى إلى جذع الزيتونه ، ارتدى ملابسه وتمدد على الأرض .

-11-

قال عبد الوهاب :

– لعله نام 00

حمل حجراً وقذف به إلى جانب جوهر ليرى درجة تنبهه 00 في أقل من الثانيه اختطف جوهر غدارته 00 واتخذ وضع إطلاق النار 00 وهتف بعلو صوته :

– من هناك ؟!

لم يتحرك عبد الوهاب من مكمنه 00 قال في نفسه :

– مازال حذراً كالثعلب 00 ينام بنصف عين .

صب جوهر لنفسه فنجاناً من القهوه وارتشفه 00 ثم تناول ربابته من جديد 00 وأخذ يحزُ ويغني بصوته المؤثر :

– الله نشـد يا عقـاب عـن معـرفـة يـوم
وحنا ثماني سنين ياعقـــاب جيـران
عســى لايمـي تاخـده دولــة الـــروم
والا عسى توطاه رهطه من الجـان
يا عقاب يطلع لك صـديـق مـن القـوم
ويطلع لك من الربع الموالين عـدوان

قال عبد الوهاب :

– لقد بدأ مواجعه ولن يكف حتى يفتت قلبه 00 لعنة الله على الجازيه 00 لم تحفظ معروف جوهر 00 لم ترع ذمته .

ظهر من مكمنه واتجه إلى عمه 00 طرح عليه السلام .

رد جوهر بحفاوة وهو يفسح له مكاناً بجانبه على جاعد الخروف .

صب فنجان قهوه ناوله عبد الوهاب 00

–12–

– لماذا لا تنام يا عماه ؟

– النوم ربيع الولايا والرجال الهلابيد .

– أما زلت غاضباً من الجازيه 00 انت تعرف أنها رعناء 00 متسرعه 00 خفيفة العقل .

- زوجتك طيبة القلب 00 ولو أساءت لأحد فإنها تعرف خطأها فيما بعد 00 وهي ابنتي بمقدار ما أنت ولدي .
- لم ترث من طباع أبيها شيئاً 00 ورثت طباع جدها سالم 00 سليطة 00 عنيدة 00 لا يسلم من شرها أحد 00 لقد ضربها والدها أمس ضرباً مبرحاً 00 أمرها بالعودة إلى الوادي 00 والاعتذار لك ولمرجانه عما بدر منها .

قال جوهر :

- ما كان يجدر به ذلك 00 غداً سأذهب إليه 00 ولن تكون الجازيه إلا راضيةً .

قال عبد الوهاب :

- كنا في طفولتنا نتزاحم معاً ونختصم أينا يجلس على ركبتك 00 فتجلس كل واحد منا على ركبه وتنادي مرجانه لكي تطعمنا ونحن جالسان في أحضانك .

لعلك أفسدتنا بدلالك هذا ؟

ضحك جوهر وأراد أن يغير الموضوع حتى لا يسمع المزيد من مدائح عبد الوهاب .

- ما هي أخبار الجزار الجديد في عكا ؟
- بعد فشل حملة والينا عبدالله على دمشق 00 استاء السلطان من

وقاحته كما تعلم 00 نزع منه بشالك طرابلس 00 فما كان منه إلا أن صب جام غضبه على رعيته البائسه .

قاد عشرين ألفاً من المرتزقه 00 حاصر قلعة سانور في نابلس 00 احتلها وأباحها لعسكره 00 جلس في عكا يمدح نفسه بقصائد لم يحظ بها عنترة ابن شداد .

* * *

في اليوم التالي ذهب جوهر إلى الجازيه في بيت أبيها في الحاره وقال لها :

– والله يابنتي إنك على حق 00 ما أنا إلا عبدٌ أعتقه يونس ، وما مرجانه إلا جارية أعتقها عبدالوهاب 00 وما أراه إلا يبالغ في إكرامنا 00 ويعطينا أكثر مما نستحق 00 لقد أطلت المكث في هذه الديار 00 وأصابني ما يصيب المياه الراكده 00

تأسن ويتكاثر عليها الذباب 00 لقد نويت الرحيل 00 وسوف يكون رحيلاً بلا عوده 00 عودي إلى بيتك وأولادك ولا تعلمي عبد الوهاب بنيتي ، لو علم أن لك يداً في رحيلنا 00 ما أخاله ألا يشتد عليك أكثر ، وربما أدى ذلك إلى الطلاق بينكما وتشريد أحفاد يونس ، وهو ما لا أرضاه .

نظرت الجازيه إلى وجه جوهر 00 كانت ذقنه البيضاء المفلفله تزيد من سواد وجهه ، المليء بالتجاعيد ، تذكرت طفولتها وكيف كانت تتغالب مع عبد الوهاب على حضن جوهر 00 كيف درجت تحت عينيه طفلةً 00 كان يمشط لها شعرها الطويل إلى أن شبت عن الطوق 00 وكيف كان جوهر ومرجانه أسعد الناس بخطبتها

-14-

إلى عبد الوهاب 00 أحست بالندم على فعلتها 00 همت أن تقبل اليد السوداء المعروقه كما كانت تقبلها وهي طفلةً 00 تبللها بالدموع السخيه 00 إلا أنها لم تفعل 00 منعها كبرياؤها الأجوف 00 اكتفت أن ودعته بكلمات مقتضبه 00

– ان شاء الله خير يا عمي .

00 ان شاالله خير .

(2)

أمر سائقه أن يسرع 00 هوى السوط على ظهور الخيل الفارهه 00 فتلوت 00 ثم شبت بأذرعها في الفضاء 00 حتى حاذت سنابكها رؤوس الماره 00 حمحمت بغضب 00 قبل أن تواصل صعودها في شارع محمد الفاتح 00 الأمشجيه أمامها بثيابهم المزركشه يفسحون لها الدرب 00 ذيل من الخدم يهرولون خلف العربه 00 ليعطوا لموكبه ما يستحق من الأبهه .

لعل هذا أسعد يوم في حياة نظمي بيك 00 منذ أن طوحت به يد الجزار إلى الأستانه قبل ثلاثين عاماً 00 إنه يتذكر الأمر كما لو حدث بالأمس 00

استدعاه الجزار على عجل 00 فلعبت برأسه الوساوس 00 هل اكتشف الجزار جديداً عن علاقته بالفرنسيين ، وحتى إذا لم يكتشف وظل في نظر الجزار مخلصاً أميناً فإن " آخر خدمة الغُز علقه " [1] وآخر خدمة الجزار هي الخازوق .

كتب وصيته 00 سلمها لشيخ الحاره 00 وسلم نفسه لجلاوزة الجزار 00 فالوقوع في البلاء خير من انتظاره .

في عكا فوجئ بالاستقبال الحار الذي حظي به .

قال له الجزار :

1. الغـز : العسكر 00 وهذا مثل شائع

- أعجبتني التقارير التي كنت ترسلها لي عن الفرنسيين .

أنت نبيه ذكي لماح وتحليلاتك صائبه 00 ثم أنك تجيد التركيه والإيطاليه 00 وقد تعلمت الفرنسيه أثناء تجريدة بونابرته 00 باختصار أنت داهيه يا نظمي وأريد الإستفاده من دهائك .

– أنا رهن أمرك يا مولاي 00 وغزة كلها 00

– طُز .

مد الجزار قدمه في إتجاه نظمي وأشار إلى باتونه :

– " غزة هذه أهون عليَّ من مسمار الباتون (2) " .

عاين نظمي باتون الوالي بخشوع 00 أعاد الوالي قدمه إلى الوساده حيث كانت 00 وتابع :

– إنس غزة تماماً 00 كما نسيتها أنا 00

ثم أشار إلى فارحي الذي يقف غير بعيد عنهما :

– أنت أيها الأعور 00 حافظ على تذكرك لغزه 00 ولا تنسى أن تحصل من أهلها ما يتوجب عليهم من المال 00 دون أن تسرق منه شيئاً .

ثم واصل حديثه لنظمي 00

– سأرسلك إلى الآستانه لتكون عيناً وأذناً 00 وتبعث إلي كل شارده ووارده 00 لا أريد أن يفاجئني القابودان (3) باشا وأنا في فراشي يا نظمي أفندي 00 ثم إستدرك .

– أفندي 00 لا لا إنتي لازم بيك 00 والقول أغاسي الرتبه التي تخرجت بها من المدرسه العسكريه في الآستانه 00 لم تعد تصلح 00

2. الباتون : الحذاء

3. القابودان : قائد الأسطول العثماني

أنت منذ الساعه نظمي بيك البيرقدار 00 وكيل عزتلو أحمد باشا الجزار (والي بشالكات صيدا وطرابلس وسنجق قدس شريف 00)

ارتمى نظمي على أقدام الجزار يقبلهما ويلهج بالدعاء

أشار الجزار إلى فارحي :

– هذا الوغد حاييم سيدبر لك كل شئ .

استضافه حاييم في بيته تلك الليله 00 وفي غرفته الخاصه 00

تعمد حاييم أن يجلس في الظل 00 حتى لا يفجع ضيفه بمنظره الكريه 00 لاحظ نظمي أن هناك خزانة حديديه تختبئ داخل الجدار السميك 00 لابد أن أرضية الغرفه حافله أيضاً بأمثال هذه الخزانه .

هنا يخفي حاييم كنوزه .

أراد أن يداعب غرور الخواجه فقال له :

– أنت أمين الخزانه في عكا 00 وشقيقك روفائيل أمين الخزانه في دمشق 00 وابن عمك سلمون المستشار المالي للسلطان 00 وشقيقه حزقيال أعظم صيارفة اسطنبول 00 كيف وصلتم إلى هذه المكانه وأنتم (أراد أن يقول كفاراً 00 ولكن الكلمة علقت بين شفتيه 00 فاستبدلها بما ظن أنه الوصف الأكثر لياقه) .

– وأنتم ذُم .

تأمله فارحي بعينه السليمه ثم قال بهدوء :

– ظننتك أكثر ذكاء يا نظمي 00

تناول فارحي علبة نشوقه 00 تنشق وعطس 00 مسح أنفه بمنديله 00 ثم تابع متخذا سمت المعلم:

– إن للناس أدياناً مختلفه 00 هذا في ظاهر الأمر فقط 00 أما في الحقيقه 00 فإنهم على اختلاف أجناسهم وألوانهم ومللهم 00 يعبدون

رباً واحداً هو المال 00 نحن اليهود وعينا هذه الحقيقه مبكراً 00 وحين صنع لنا السامري عجلاً من ذهب 00 عبدناه وتركنا الـه موسى 00 وإلا فما الذي يجعلني أتحمل اساءات الجزار 00 وقلة وفائـه ؟؟ !!

قام فارحي إلى الخزينة المخبأة في الجدار 00 فتح بابها على مصراعيه 00 لمعت سبائك الذهب المكدسة فيها 00 تحسسها فارحي بشراهه 00 ثم التفت إلى نظمي أفندي :

– المال 00 هو الإله المعبود 00 ونحن سدنة هذا الإله .

بعد أن تناولا طعام العشاء 00 قال له حاييم :

– لقد ضحيت بعيني وأذني وأنفي 00 عندما كشف الجزار مراسلاتي مع نابليون 00 ولكني رفضت أن أضحي بك يا نظمي 00 لم أبلغ الجزار بأنك كنت عميلاً للطرفين في الوقت نفسه 00 وأن رسائل نابليون التي ضبطها معي 00 إنما حملها إليَّ رسولك إلى الجزار 00 وطبعاً أنا أتوقع منك أن ترد لي هذا الجميل 00

– أنت بتمون على رأسي يا معلم فارحي .

– لا أريد رأسك 00 أريد ولاءك الكامل لي ولعائلتي 00 خذ هذا الكتاب لإبن عمي حزقيال في اسطنبول 00 واياك أن تعصى له أمراً 00 أو ترسل إلى الجزار أي كتاب دون أن تطلعه عليه .

– سأكون خاتماً في أصبعه .

تمتم فارحي بصوت خافت :

– لن تكون أكثر من حذاء في قدمه .

وجد حزقيال في نظمي بيك ضالته المنشوده 00 فشكلَّه كما يُشكِّل الصلصال في فواخير غزه .

- عليك بالصلاه في المساجد وفي الصف الأول 00 وشارك في حلقات الذكر 00 وأعمال الخير ، وأظهر على الناس بمظهر الصلاح و التقوى فسوف يفسح ذلك الطريق أمامك 00 إلى الأماكن التي لا نصلها ولا نحيط بما يدور فيها 00 تلك الأماكن التي تعج برجال الدين 00 ومشايخ الطرق الصوفيه 00 وكل الهمج المتخلفين الذين يؤلبون السلطان علينا 00 وينافسوننا في التأثير على قراراته 00

أما نزواتك ومعاصيك فعليك أن تخفيها 00 بالمهارة نفسها التي تخفي بها علاقتك معنا 00 وسوف نعطيك ضعف ما يعطيه لك الجزار ثمناً لولائك .

- العفو يا خواجه 00 أنا لا أريد شيئاً مقابل خدمتي لكم 00 أفضال الخواجه حاييم

- إسمع يا نظمي بيك 00 نحن نعرف أنك رجل بلا دين ولا ذمه ولا ضمير 00

ربت على كتف نظمي وهو يبتسم مظهراً له مودة لا تشوبها شائبه 00 أخذ نظمي المال واستقامت أموره .

تنهد نظمي بيك ونظر من نافذة العربه فرأى سور توب كاباي راسخاً مهيباً 00 تأمل أبراج السور وبواباته الضخمه وقال في نفسه : (مضى زمن كان الجالس فيه على هذا العرش 00 يهز العالم بإشارة من سبابته 00 وكان على العصاة من أمثال سيدي والي عكا أن يقدموا للسلطان ولاءهم 00 أو رؤوسهم على أسنة الرماح 00 ان سليل ثلاثين سلطانا من صلب سلطان 00 يمد الآن يده إليَّ أنا 00 نظمي إبن حسن البعبوز 00 بياع الفخار وقلاقيم الجامع في حارة التفين 00 ليقترض مني المال 00 ويفرض لي به ضريبةً جديدةً على أهل الشام) .

قهقه نظمي بيك 00 وضرب كفاً بكف 00 مساكين أهل الشام سيقول قائلهم بعد وصول النبأ : " احترتي ياعرضي 00 لمين ترضي " 00 ولكن لماذا أرثي لأهل الشام 00 الله لا يزيح عنهم مِقت قال المثل : بعد راسي ما ينبت حشيش .

تذكر الصعوبات التي اكتنفت جمعه للمال المطلوب 00 ثلاثمائة ألف كيس قال في نفسه : دبرت أنا ثلث المبلغ 00 ودبر صديقي قاسم أغا العقيلي الباقي 00 أدخلته شريكا معي بالثلثين وموعدنا الليله في بيت الخواجه حزقيال 00 يتسلم وكيل السلطان المبلغ ويسلمنا الصليان 00 غداً مع طلوع الفجر يرحل قاسم أغا إلى دمشق ليجمع لنا الغلَّه 00 كم سيجمع 00 مليون كيس على الأقل غير المبالغ التي سيضطر لتوزيعها في دمشق 00 على الوالي والكيخيات والجوربجيه والأضباشيه وباقي الأغوات 00 فلن يهب أحد منهم لتنفيذ الصليان إلا بعد أن يملأ خواصره 00

إستند إلى ظهر مقعده 00 مدد قدميه 00 صاح في السائق :

– يا واش 00 يا واش .

ثم أخذ يفكر في جذل .

الخطوة القادمه أن تشتري البشالق نفسه يا نظمي بيك 00 لكي تصبح باشا دمشق الشام 00 أو تشتري بشالق طرابلس 00 أو صيدا فتدخل غزه تحت بنديرتك 00 ويتهامس أهلها في ذهول : " ابن البعبوز صار باشا علينا " .

وصلت العربه سراي بورنو عند مدخل القرن الذهبي 00 هبت نسمات البحر رقيقه بارده 00 كانت السماء خاليه من السحب 00 ومياه البوسفور تلتمع زرقاء صافيه 00 أحس بالرضا والسكينه وزاد

اعتدال مزاجه 00 داعبت أنفاسه رائحة الصنوبر قادمة من حرش قريب 00 أطل من نافذة العربه :

– هنا أمام هذا الحرش كان فران الأغوات .

تلمس موضع الفرن 00

– لم يعد له أي أثر أقيمت مكانه بناية من طابقين 00

تذكر أيام شبابه في اسطامبول حينما كان طالباً في المدرسه العسكريه .

(لعن الله الفقر 00 كان جوعي أكثر من شبعي في هذه المدينه 00 فالقروش القليله التى دبرها والدي اختفت في الشهور الأولى 00 أصبحت جراية المدرسه من القسماط الناشف زادي الوحيد 00 كادت مصارين بطني أن تجف إلى أن تعرفت على نظله خانم زوجة الفران 00 كنا قد تبادلنا أحاديث عابره عدة مرات 00 ثم تعمدت أن أذهب إليها قبل إغلاق الفرن لم يكن هناك سوانا 00 ناولتها البشلك 00 وطلبتُ كعكة بسمسم 00 وضَعتْ البشلك في الصندوق 00 ناولتني الكعكه 00 اقتربت منها 00 أخذت راحتها بكلتا يدي 00 وضغطت عليها 00 اضطربت 00 وقعت الكعكه على الأرض 00 احتضنتها فلم تمانع 00 انهلت عليها بالقبلات 00 أغلقت الفرن 00 وقادتني إلى المعجن 00 حين خلعت سروالي شهقت :

– بيم بلا ورسم بلاد غزات [1]) .

اجتازت العربه مسجد أمين أونو 00 كانت أسراب الحمام تحوم حول المسجد 00 وتحط على أفاريزه وقبابه وأعتابه 00 أحس بسعادة بالغه 00 خيل إليه أنه يطير مع أسراب الحمام 00 واصلت

1. الله يبلي غزه بمائه بلاء

العربه صعودها 00 حين صارت في أعلى الطريق 00 استطاع أن يميز شجرة الدُلب الكبيره في منزل " الصُره أميني [1] " 00 والسور الأبيض الذي يحيط بقصر الداماد [2] 00 ثم ما لبث أن لمح أقواس النوافذ العليا لقصر الخواجه حزقيال 00 تنهد نظمي بيك : (إذا كانت معرفة الرجال تجارة كما يقولون فإن معرفة حزقيال كنز بحد ذاته 00 صحيح أنه ليس أميناً للخزانه في اسطنبول 00 وليست له أية وظيفه رسميه 00 ولكنه يستطيع أن يبطل أو يكمل أي صفقه في هذه المدينه يبطلها بأن يدفع للسلطان أكثر مما دفع أصحابها فتصبح من نصيبه 00 أو يكملها بأن يدعم عاقد الصفقه ويزكيه لدى السلطان هناك الكثير من الصيارفه اليهود والأرمن يشترون من الباب العالي التيمارات [3] والملكانيات والوظائف ويبيعونها لمن يدفع أكثر 00 لكن حزقيال دائماً يفوز بنصيب الأسد 00 وشقيقه سلمون المستشار المالي للسلطان 00 هو الذي يرتب القروض للسلطان كلما نفذت خزائنه) .

توقفت العربه أمام قصر الخواجه حزقيال 00 هرع الخدم يفتحون الباب للضيف الصديق 00 لاحظ عربة قاسم أغا العقيلي وخدمه في باحة القصر 00 أدرك أن العقيلي سبقه في انتظار ياور السلطان ثم لاحظ وجود ثلاث عربات على إحداهن غبار السفر 00 سأل كبير الخدم عن أصحابها 00

1. الصره أميني : قائد قافلة الحجاج

2. الداماد : لقب زوج ابنة السلطان وتعني بالتركيه " الصهر "

3. التيمارات : تحصيل الضرائب من الإقطاعيات الكبيره لمده محدوده 00

أما الملكانيات حق تحصيل الضرائب مدى الحياه 00 يعني مدى حياة الملتزم

رد عليه كبير الخدم بحفاوة :
- الأولى عربة المسيو بازيلي 00 من سفارة روسيا 00 أما تلك التي يعلوها الغبار فهي عربة المسيو باسيه قنصل هولندا في حلب 00 والثالثه عربة رستم بك وكيل كوجوك علي أوغلو 00 باشا بياظ .

أدخله الخادم إلى غرفة الإنتظار حيث يجلس قاسم أغا .

سأله قاسم أغا هامساً :

- لماذا تصر على أن يتم الدفع بواسطة حزقيال ؟

ألا نستطيع أن نذهب بالمال مباشرة إلى عزت بيك ونوفر عمولة هذا اليهودي الجشع ؟؟

أجابه نظمي بيك بصوت يدل على نفاذ الصبر :

- حزقيال ليس سمساراً عاديً كالآخرين يقبض عمولته ويعطيك ظهره حزقيال باختصار يا قاسم أغا 00 هو ضامن حقيقي للطرفين 00 لنا وللسلطان 00 حتى يفي كلٌ منا للآخر بشروط الصفقه دون غش أو خداع 00 هذه ليست صفقه بيع جمال عقيلية تقبض ثمنها وتسلمها للجزارين 00 هذه معامله مع الدوله العليّه العثمانيه .

ضرب قاسم أغا كفاً بكف :

- بل قل الدوله التي لم تعد عليَّةً 00 ولا عثمانيه .

انفتح باب المكتب 00 خرج رستم بك وكيل كوجوك علي 00 باشا بياظ 00 صافحهما بحراره 00 وهو في طريقه إلى الخارج 00 قبل أن يغادر سأله نظمي بيك مازحاً :

- هل وجد سيدك قاووقاً على مقاس رأسه ؟

ضحك رستم وهو يُطمئن نظمي :

- فصَّلنا له واحداً عند الأرمني كيرياكو .

انصرف وهم يتضاحكون .

قال نظمي بيك :

– حين منح السلطان 00 كوجوك علي 00 قاطع الطريق 00 رتبة باشا ببنجقين 00 دار به رستم بك على كل أسواق اسطنبول فلم يجد قاووقاً على مقاس رأسه الضخم 00 وحيث أن أهم شارات الباشويه لبس القاووق 00 فقد ظلت باشويته ناقصه .

رافق الخواجه حزقيال ضيفه إلى الباب الخارجي 00 وسمعه نظمي وهو يقول لقنصل هولندا :

– لا أنصحك بتلبية دعوة كوجوك علي 00 حتى لو أظهر لك الصداقه 00 فأمثال هؤلاء اللصوص لا صداقه لهم 00 ثم أن حمولة الباخرة التي نهبها 00 تباع الآن في أسواق بورصه وازمير واسطنبول 00 وكل قرى الأناضول 00 ولا أمل في استرداد شئ منها 00 فوفر عليك جهدك الذي لا طائل من ورائه .

ما أن ودع حزقيال ضيفه حتى عاد لنظمي وقاسم أغا هاشاً باشاً 00 نظر في ساعته :

– جئتما مبكرين 00 لن يصل ياور السلطان قبل ساعة من الزمن 00 لا بأس هل أحضرتما المال ؟؟

أومأ قاسم أغا بإشاره من رأسه :

– حسناً 00

أشار بيده إلى كبير الخدم لعمل اللازم .

حمل الخادم صرة المال إلى غرفة الخزانه لإحصاء المبلغ 00 وعاد إليهما يدفع أمامه عربة الشاي صب لهما الشاي في أكواب مزخرفه 00 ووضع أمامهم صحون البندق 00

تناولوا حبات البندق 00 ثم ارتشفوا شايهم بهدوء 00

(3)

أتمت الجازيه زينتها 00 فكت عقوص شعرها وسرحته على طوله 00 دعكت وجنتيها وشفتيها بقماش أحمر 00 سكبت على راحتها قليلاً من العطر مسحت به رقبتها ونحرها وإبطيها ثم وافت عبدالوهاب في غرفته .

كان يتمدد على السرير في قيلولة العصر وبيده صحيفه الوقائع المصريه التي أهداها له مصطفى الكاشف " هذه الصحيفه حملها لنا تجار بولاق 00 وقد قرأت فيها مقالاً للشيخ رفاعه الطهطاوي يدعو فيه إلى إنهاض الأمة الإسلاميه وبعثها من رقادها 00 عسى أن يعجبك " .

والحقيقه أن الصحيفه استولت عليه تماماً 00 فلم ينتبه لدخول الجازيه 00 حتى هزته وأطاحت بالصحيفه من يده .

– هكذا أنت دائماً 00 إما على ظهر حصانك تسوح في أرباض الوادي 00 أو مستغرقاً في القراءه لا تحفل بأحد 00 تاركاً مالك وحلالك تحت رحمة العبيد الجلايب 00 لم تعد صغيراً 00 أنت أب لخمسه 00 متى ستصحو من غيك 00 وتبلغ مبلغ الرجال 00 وتأخذ بيدك زمام أمرك .

– جوهر ومرجانه ليسا من العبيد الجلايب 00 جوهر أبي 00 ومرجانه أمي 00 وهذا الذي أنا فيه ليس غياً 00 لكنه طريقتي في الحياة يا بنت شيخ الحاره 00 يبدو أن والدك لم يضربك جيداً في المره الأخيره فعدت سريعاً للتطاول على سيدك وولي نعمتك جوهر 00

وعلى المرأه التي لم أعرف لي أماً سواها 00 أغربي عن وجهي قبل أن ينالك مني ما تكرهين 00

هم بالوقوف 00 ولكنها فرَّت من أمامه وهي تسب وتلعن .

عاد إلي الصحيفه يحاول متابعة القراءه 00 غير أنه وقد اجتاحه الغضب لم يعد يُميز ما يقرأه 00 ألقى بالصحيفه جانباً وتنهد :

– أية أمرأه شرسة عنيده متكبره طويلة اللسان 00 هذه المرأه 00 ولماذا تستفزه دائماً 00 وتناصب جوهر ومرجانه كل هذا العداء 00 لوأنها لم تكن إبنة خاله ورفيقة طفولته وصباه 00 لما تردد في طلاقها 00 هل أحبها يوماً ؟؟ كان يظن ذلك حتى إلتقى بالخاتون 00 أي لذة وجدها في الإصغاء لصوت الخاتون 00 كان صوتها عذباً كأجراس صغيره علقت برقبة حمل يتقافز في رحابة السهول .

وفي الليل حينما يشرق ضوء القمر من نافذتها المطله على السواقي 00 تحتضن عودها وتغني بالتركيه أو بالعربيه 00 كانت تسطع كحوريه هبطت لتوها من السماء 00 جميلة 00 رقيقة عذبه 00 كأنها قطرة الندى .

تذكر عبدالوهاب ليلة وقف التفكجي باشا 00 وقد تعتعه السكر على الدرج المؤدي إلى الطابق الثاني في السرايا 00 حيث كان يرقد عبدالوهاب جريحاً في سرير الخاتون وأخذ يجأر بأعلى صوته :

– تهتمين بفأرٍ من فئران الحقول 00 تمرضينه على سريرك 00 وتهملينني أنا زوجك التفكجي باشا رئيس القراقول وكيل متسلم غزة وقراها .

يا بنت الصدر الأعظم 00 سيجئ يوم تركعين فيه على قدمي 00 تطلبين مني أن أسامحك على احتقارك لي .

كنتُ رقيقاً لوالدك 00 أعرف ذلك 00وكنتُ محبوبه أيضاً 00وهذا ليس سراً 00لماذا تتكبرين علي ؟ وترفضين معاشرتي ؟
أُمك أيضاً كانت جاريةً له 00 نحن من طينة واحده .

صحيح أن والدك كان سكراناً حين زوجنا 00 ولكن المأذون كان صاحياً 00 والشهود كذلك 00 لن أطلقك أبداً 00 ستبقين هكذا معلقة حتى يتعفن الدم في عروقك .

اتفوه 00بزونك 00 خرسيس .

قالت الخاتون لعبدالوهاب وقد لاحظت اضطرابه :

- لا تعبأ به 00 إن رجولته لا تكفي لتجاوز الدرجة التي يقف عليها كلما أمعن في الشراب 00 صمتت وقد ظهرت على وجهها علامات الكدر :

- لا تجوز على الأموات إلا الرحمه 00 زوجني والدي وهو سكران 00 ومات في الليلة نفسها 00 قبل أن نتبين إن كان يجدُ أو يهزل 00 في مسألة زواجي .

بالنسبة لي فإن هذا التفكجي الوغد ليس إلا سجاناً مثله مثل أبي .

كانت متأكدة أن التفكجي لن يجرؤ على إيذائها 00 وظلت تتصرف كما لو أن والدها ما زال حياً وما زال صدراً أعظماً 00 أعوام طويله مرت منذ غادرعبدالوهاب غرفتها بعد شفائه من تلك السقطه وبعد أسبوع من زواجه راودته نفسه في العودة إلى لقاء الخاتون 00 ولكن سبق السيف العذل 00

في ليلة نحسٍ أسرف التفكجي في الشراب كعادته 00 ووقف على منتصف الدرج يلقي موشحه 00 كانت قد أغلقت غرفتها على نفسها منذ سمعت بزواج عبدالوهاب 00 لا أحد يعلم إن كانت قد بكت أو تسلت عن فقده بالغناء 00 في تلك الليلة وخلافاً لعادتها لم

تصمت 00 فتحت باب غرفتها وأطلت على التفكجي من علٍ 00 قالت بصوتٍ ساخرٍ حرصت أن يسمعه كل أعوانه :

- أي حق حرمتك منه يا زوجي العزيز 00 أنا رهن إشارتك 00 وتحت تصرفك منذ اللحظه .

بوغت التفكجي بما حدث 00 هم بأن يترك موقعه وينسل إلى فراشه في الطابق الأرضي 00 لكن أعوانه كانوا يحاصرونه بنظراتهم وفي عيونهم ما يشبه الإحتقار 00 اشتعل جنونه 00 إذاً فسره لم يعد سراً 00 سوف يصبح أضحوكةً للعسكر 00 وحتى العامة من الناس الذين درج على إهانتهم وسلب حقوقهم 00 سيعيرونه بعجزه 00 ويطلقون في أثره الصبية يسخرون به حيثما حل .

صعد باقي الدرجات وهو يترنح إلى أن وصل حيث تقف 00 سحبها إلى غرفتها وأغلق الباب خلفه 00 في الصباح وجدوها في سريرها جثةً هامده 00 لقد خنقها التفكجي .

تنبه عبدالوهاب من تأملاته على نحيب الجازيه 00

قام من سريره محنقاً 00 ألقى بالصحيفه وخرج إلى الفناء :

- إليَّ بحصاني .

امتطى صهوته ودفع مهمازيه في بطنه فانطلق كالسهم 00 حتى غاب في جنبات الوادي 00 رأته الجازيه من النافذة فقالت :

- هذا دأبه كلما ضاق صدره 00 لن يعود إلا وقد أشرف الحصان على الموت 00 ليتني لم أشتد في تأنيبه .

انزوت في غرفتها تبكي حظها العاثر وتدعو الله أن يخلصها من جوهر ومرجانه 00 ليخلو لها وجه عبدالوهاب .

(4)

دخل أيلول 00 دنت السحب 00 صار لونها الرمادي داكناً 00 وأحياناً أقرب إلى السواد 00 هبت الريح البارده من الغرب فشمت الحاره روائح المطر الوشيك 00

كانوا قد انتهوا من خزن المونه للعام كله 00 لموا عن السطوح ما نشروه من البرغل والمفتول والشعيريه 00 وعبأوه في قدور الفخار 00 وجمعوا عن فروع الشجر مشاكيك البصل والثوم وعقودالباميه والفلفل الأحمر 00 ليعلقوه بسقوف بيوتهم وعلى جدرانها حتى يتخلله الهواء فلا يصيبه العفن 00

أخيراً انصرفوا بكل همة إلى " اللياسه " فالجدران والسقوف الطينيه التي جردتها أمطار العام الماضي 00 لا تقوى على مواجهة شتاء آخر دون أن تعزز بطبقة جديده من الطين المجبول بالقصل والتبن 00

قالت سكينه لجارتها نواره زوجة رضوان البطش :

– أيلول طرفو مبلول 00 وعلينا أن نُليّس بيتنا قبل أن يداهمنا المطر .

– لقد تأخرتم 00 كل الجيران إنتهو من لياسة بيوتهم .

– تعرفين أن عبدالله وحداني 00 وكان مشغولاً مع جوهر في قطف الزيتون بوادي الزيت .

– لاتحملي هماً 00 زوجي سيعاونكم 00 وكل أهل الحاره 00 هذه عوايد بلادنا 00 الإيد على الإيد رحمه 00من أين ستحضرون الطينه ؟

– من مطينة السعور 00 طينتها نقطه وأصبع 00 مش زي طينة الحاره رخوه ومالهاش عرق 00

-30-

حين أتم عبدالله نقل الطينه على ظهور الحمير 00 كومها في باحة الدار 00 هب الجيران لمساعدته 00 خلطوا الطين بالماء 00 جبلوه مره واثنتين حتى صار لدناً 00 ثم مزجوه بالقصل [1] وداسوه بأقدامهم أعادوا جبله ثانية 00 حتى غلظ قوامه 00 قسموه إلى جواليس نقلوها إلى أسفل الجدران 00 رفعوها بالمذراي حتى استقرت فوق السطوح وهم يهزجون :

وِانْتْ يا جمال وِانْتْ
وِانْتْ عينك عين بِنْتْ
***
مالك مأوى 00 مالك بيت
وانت عالخـــان إتمسيت
***
وانت يا جمالنا
إيش جابك دارنا
***
جابني حب البنات
السُمُر 00 المكحلات

***

1. القصل : القش بعد درسه يسمى الناعم منه " تبن " 00 والخشن " قصل " .

-31-

امسيت والمغرب غريب
واجمالي إتناوشها الديب

أتم الرجال عملهم قبيل الظهر 00 وانصرفوا إلى دار الدهدار ومعهم عبدالله ليفزع لجيرانه كما فزعوا له 00 تاركين النساء لإكمال المهمه .

أغلقت سكينه الباب خلفهم 00 تخففت النساء من أثوابهن التي تعيق الحركه وبدأن العمل بهمة ونشاط في فرد الطينه على الجدران بعد رش الجدران بالماء 00 أنجزت النساء العمل في وقت قياسي 00

شعرت سكينه بالرضى واطمأن بالها 00 فدعت لهن :

– الله يعطيكو العافيه 00 طول ما الجاجه حافيه [1] .

أحطن بها وهن يتصايحن :

– إحكي لنا نادره من نوادرك يا أم عبدالله 00

– الله يخليكي 00

– إنتي وعدتي لما نخلص اتدحكينا [2] .

انفتحت شهية سكينه 00 فاتحفتهن بإحدى طرائفها 00

– دخل العشيق على الزوجه وهي تليس بيتها وقد تخففت من ثيابها 00 فاشتهاها 00 وأصر على مواقعتها في كومة الطين 00 وبينما هما غارقان في الوحل 00 طرق الزوج الباب 00 فاحتارت أين تخبئه 00 أخيراً أوقفته عارياً إلى جانب الجدار 00 وفردت عليه الطين حتى اختفى تماماً 00 فتحت الباب للزوج 00 عسى أن يقضي حاجته ويغادر سريعاً 00 أصر الزوج على البقاء لمساعدتها 00

1. **الجاجه : الدجاجه .**
2. **اتدحكينا : تضحكيننا**

عطس العشيق فسقطت عنه جواليس الطينه وظهر أمام الزوج عارياً 00 صعق الزوج وهم بقتله 00 لكن العشيق بادره بالسؤال :

- ألا تؤمن بالله يا رجل ؟

- أؤمن بالله .

- من أي شئ خلق الله الإنسان ؟

- خلقه من طين .

- إذا فاعلم أن الله قد خلقني في التو واللحظه .

قال الزوج وقد ندم على تسرعه في الحكم على الرجل :

- ونعم بالله .

خلع الزوج عباءته ولف بها العشيق وقال وهو يشيعه :

- يا مخلوق 00 أستر نفسك بهذه العباءه ريثما تشتري لك ثياباً 00 الله يستر عليك وعلى كل مخاليقو .

أغرقت النسوه في الضحك 00 كن قد أنهين العمل تماماً 00 فهجمن على كنة سكينه وجردنها من ثيابها 00 ألقين بها في كومة الطين 00 غطين جسدها بالجواليس وهن يتضاحكن 00

قالت نواره :

- عندما يعود زوجك قولي له أن الله خلقك في التو واللحظه 00 تخلصت الكنه منهن وهرعت إلى غرفتها وهي تبرطم :

- إن زوجي لم يعد فيه حيل لمضاجعتي وأنا من لحم ودم 00 حتى يخلق الله له نساء من طين الأرض .

ارتدت النساء ثيابهن وغادرن مع سكينه إلى بيت الدهدار 00 حيث انتهى الرجال من تجهيز جواليس الطين وغادروا إلى الساحة 00 أغلقن الباب عليهن من الداخل وبدأن العمل في فرد الطينه على

الجدران وصدى ضحكهن وصخبهن يتردد في جنبات الحاره 00

قالت الكشوره زوجة فرج السويسي لضرتها التي كادت تتقطع أنفاسها من الضحك :

- خلليكي ورا سكينه 00 لما تعلمك المياصه 00 قال المثل : مره بتخرب مره 00 ومره بتخرب بلد .

(5)

أشرقت عيون العجائز بالدمع وهن ينشدن التحانين في وداع جوهر ومرجانه اللذين تهيآ لأداء فريضة الحج 00 انطلقت أصواتهن في رنةٍ أقرب إلى البكاء

خـذونـــي معــاكــم
مـا بقعـــد بــلاكـــم
ولم بطيـــق الفــراق
***
حجنـــا يـا نـــــاوي
مــين يعمـل قهــاوي
ومين يحييِّ الضيوف
***
رواســـي رواســـي
تحنـــن كل عاصـي
يا طـريـق الحجـاز

أجهشت ليلى بنت سالم زوجة مبارك شيخ الحاره بالبكاء 00 ارتمت في أحضان مرجانه ، عانقتها مرجانه والألم يعتصرها 00 ابنتها الجازيه زوجة عبدالوهاب غمزت صديقتها سعديه حفيدة سكينه 00 ثم أشارت بكلتا يديها في سخرية وهي تمصمص شفتيها :

- خللي البكا لوقت الرحيل 00

كانت الجازيه تستعجل رحيل جوهر ومرجانه وتُرحب به من صميم قلبها 00 حتى يخلص لها عبد الوهاب دون شريكٍ أو منازع .
رغم أن جوهر تحاشى الصدام معها 00 وحاولت مرجانه جهدها التقرب منها 00 إلا أنها لم تتقبل يوماً وصايتهما على عبد الوهاب 00 ولا الولاء

الذي يبديه لهما أمام السمع والجمع 00 أكثر ما يغيظها أنه يصر على مناداتهما بأبي وأمي 00 ويأمر أولاده أن ينادوهما بجدي وجدتي 00 يساوي العبد الأسود بأبيها مبارك شيخ الحاره وسيد الرجال

مسحت مرجانة دموعها وقد ملأ قلبها حزنُ فادح 00 لم يداهمها هذا الإحساس بالفقد والفجيعه إلا مرتين من قبل 00 المره الأولى 00 حين أطبقت يد النخاس على شعرها الجعد 00 وأوثقها غلمانه بالحبال 00 وجروها بعيداً عن قريتها وأهلها 00 لتباع في أسواق الرقيق .

والمره الثانيه حين ودعت فاطمه في وادي الزيت الوداع الأخير 00 تمنت ساعتها لو ماتت 00 قبل أن تغلق عيني فاطمه الواسعتين 00 على خيال يونس .

هذه المره يريد جوهر أن يستلَّها من جوارح قومٍ أحبوها وأحبتهم 00 عوضوها عن الشقاء الذى رأته والحزن الذي كابدته طوال عمرها .

ليس الحج ما ينويه جوهر 00 وإن كان قد أعلن للقوم ذلك 00 فقد أسر لها برغبته المجنونة في العودة إلى الحبشه 00 بعد أن يؤدي الفريضه 00 أمرها أن تكتم ذلك عن عبد الوهاب وأهل الحاره ، حين حاولت الإعتراض وضع يده على فمها ليمنعها من الكلام .

-36-

- أعرف ما ستقولينه 00 إنه (وهبه) ولدنا ولن تطيب لنا الحياةُ بدونه 00 لقد وعدت النجاشي أن أعود إلى الحبشه 00 ولابد أن أبر بوعدي 00

عبثاً حاولت أن تثنيه :

– سيقتلونك كما قتلوا أباك وأعمامك ، لقد انتقل الملك إلى قبيلة أخرى ، تفرقت قبيلتك في كل أرض ، ما الذي يستطيعه رجلٌ واحد ؟!

– لست رجلاً واحداً 00 أنا الملك .

– لقد جُننت وعوضي على الله .

ضربت كفاً بكف 00 وضع يده على كتفها :

– لقد أعزني الله بالإسلام ، وسوف أدعو قومي إليه 00 أسود به القبائل 00 ألا تعلمين أن الإسلام عزُ الدنيا والآخره .

شقت ثوبها 00 ركعت على الأرض تحثو على رأسها التراب وهي تجوح 00

– عين وصابتك يا مرجانه

قال جوهر وهو يحاول إنهاضها

– لا بأس عليك 00 سأذهب وحدي

تشبثت بأذيال قمبازه وأعولت مثل حيوانٍ استقر السهم في أحشائه :

– لا 00 بل أذهب معك .

اتجهت إلى السماء بعينين دامعتين :

– اللهم خذني إليك قبل أن تفجعني في رجلي .

نهضت وأطبقت عليه بذراعيها تحتضنه 00 كما تحتضن الأم الرءوم 00 طفلها الوحيد .

ارتفع صوت النساء بالنشيد المر :

-37-

يا طولة عنقها
يالمعة حلقها
لرب خلقها 00 طالِعه محرِمه

***

تحجـي بمالـــك

والنبـي ندالــك
والحسن والحسين

أحضرت الجازيه مشطاً من الخشب وجلست وظهرها إلى سعديه 00 وقالت لها :

– لن ينفض هذا المولد حتى الصباح 00 هلا سرحت لي شعري 00 فقد غسلته اليوم بزيت الزيتون 00

تناولت سعديه المشط 00 وقالت في سرها :

– الناس في الناس 00 والقطه في النفاس .

فكت الجازيه غطاء رأسها فتهدل شلال من الشعر الأسود الفاحم على حضن سعديه 00 أرسلت سعديه يدها تتحسس الغدائر المرسله وهي تصلي على النبي 00

– معاهم حق أهل غزة يضربوا المثل في شعرك 00 طالما سمعتهم يقولون أطول من شعر الجازيه 00 ثم تابعت مازحه :

– هل بلغ الخلخال ؟؟

أجابتها الجازيه ساخره :

– اطمئني 00 وطمئني بنات غزه 00 شعري لم يبلغ الخلخال بعد .

❋ ❋ ❋

في المضافه جلس مبارك شيخ التفاح وعلى يمينه ابن أخته وصهره عبد الوهاب وعن يساره جوهر يحيط بهم شيوخ الحاره الذين جاءوا لوداع جوهر 00 طاف عليهم سلامه أصغر أولاد أبي غوش بفناجين القهوه واختص خاله الشيخ أنس بفنجان إضافي 00

تضاحك الجالسون حين علق مبارك

– عشان الورد يشرب العُلِّيق .

أطرق سلامه مبتسماً 00 إذاً فشيخ الحاره قد علم بحبه لعدله ابنة خاله 00 وما تعليقه ذلك إلا تواطؤاً منه مع العاشقين .

قال خاله الشيخ أنس :

– سلامه في السابعة عشره من عمره 00 وهو أصغر أبناء أختي من أبي غوش 00 كان رحمه الله يسميهم الزرعه الوخريه 00 ولم يتزوج أحدٌ من اخوته الكبار حتى الآن 00 وعدله تكبره بعامين 00 فلماذا الإستعجال 00 عندما يكبر سأزوجه من هي خيرٌ منها 00 وعلى رأي المثل (اكبر يا بني والبنات كتار) .

شخر فرج السويسي :

– قال صغير 00 عليَّ الطلاق قالوشو[1] بُمرق من تحتو الزلمه 00

غطس سلامه فناجين القهوه الفارغه في وعاء الفخار المليئ بالماء وانسل خارجاً إلى الطريق وقد أثقل قلبه القهر 00

قال رضوان البطش :

– ليس من عادة المحمل الشامي أن يمر بغزه 00 ولكنه عرج عليها هذه السنه بعد انتشار قطاع الطرق والأشقياء في الطريق المعتاد

1. القالوش : المنجل .

للمحمل 00 وسوف يلتقي المحمل الشامي بالمحمل المصري 00 ويسلكان معاً طريقاً واحدةً إلى الحجاز .

أضاف عبد الوهاب :

– منذ قيض الله للإسلام الحاج محمد علي 00 باشا مصر 00 ونحن نأمل أن يقيم عثرة المسلمين وينهض الأمة من الوهدة التي انحدرت إليها 00ها هو يبسط حمايته على المحمل الشامي 00

قال الشيخ أنس :

– محمد علي 00 قاهر المماليك والإنجليز والموره 00 فاتح سنار وكردفان والنوبه ودارفور 00 أعزه الله ونصره .

حلف مبارك :

– والله كلما ذكر لي هذا الرجل أستعيد ما قاله لنا العارف بالله تاج الدين الخروبي : (مصر هي الخل الوفي لبلاد الشام 00 تصدينا معاً للغزو الصليبي 00 وللتاتار 00 حاربنا معاً 00 وانتصرنا معاً على مدار التاريخ 00) .

عقب عبد الوهاب :

– أليست مصر كنانة الله 00 التي يرمي بها أعداءه

أمن الحاضرون على كلامه 00

أي نعم 00 أي بالله 00 معلوم 00

داعب فرج السويسي جوهر :

– علي الطلاق بالثلاثة هذه إحدى كراماتك يا عماه 00 لطالما قلت لكم أن لجوهر سره الباتع .

ضحك رضوان البطش :

– لعله ورث سر تاج الدين الخروبي .

-40-

هتف مبارك :

– أنت لم تعرف عمك جوهر في شبابه يا عبد الوهاب 00 لقد هجم على الفرنسيين وحده 00 أطاح بعشرة منهم قبل أن يلقوا عليه الشباك ويسحبوه مع الأسرى .

قال فرج السويسي :

– يكفي أن هيبة جوهر جعلت من وادي الزيت واحة أمنٍ لكل مسافر .

تشكى مبارك :

– لشد ما يثقل على نفسي وداع جوهر 00 والله إنني لأفتقده حين يتأخر في وادي الزيت يوماً أو يومين 00 فكيف سأحتمل فراقه ستة أشهر 00

قال الشيخ أنس وهو يهز عمامته الأزهريه :

– مين ناداه 000 وداه 00 عقبال السامعين

أجابوه بصوتٍ واحد :

– آمين يا حي يا قيوم .

همس مبارك في أذن جوهر :

– سمعت أنك ودعت القاضي والتفكجي أمس فلماذا لم تعرج على الباشا أيضاً ؟

تقبل جوهر الدعابه ورد عليه موضحاً :

– ذهبت لوداع قاضي غزه 00 صديقنا الشيخ محمد سكيك 00 فوجدت عنده التفكجي باشا بالصدفه ، ما كنت لأذهب لذلك الوغد بقدمي وأنت تعرف ما بيني و بينه منذ منع ماء الجماقية عن أهل الحارة 00

شرد مبارك كأنه يتذكر ما لا ينسى 00 كان ذلك في العام الماضي 00 حين نزل التفكجي باشا بعسكره وحط على الجماقيه طالباً

من أهل الحارة أن يدفعوا ثمن الماء 00 مثل باقي الحارات 00

قالوا له :

– أن الذي حفرها كتب على بابها (ملعون ابن ملعون من يأخذ ثمن الماء من أهل حارة التفاح) .

تحداهم بلؤم :

– الحقوا به في القبر 00 واطلبوا منه أن ينفذ وعده لكم 00 أما أنا فإنني سأتقاضى ثمن الماء من حارتكم هذه قبل الحارات كلها 00

عادت الجرار إلى البيوت فارغة 00 منعت الدواب من الورود على الحوض 00 ثلاثين يوماً بلياليها 00 زاد الطين بله أن السباهي الذي يقود عسكر القبيقول أخذ يتحرش بنساء الحارة وبناتها00

استعاد أهل الحارة مأساة خضرة 00 وبدأوا في مغادرة الحاره 00 هاربين بأعراضهم 00 بعضهم لجأ لوادي الزيت 00 وبعضهم انتقل إلى السواقي المحيطة بالحاره حيث يتوفر الماء 00

رفض التفكجي جميع الوساطات 00 أوشكت الحارة أن تصبح قرية للأشباح 00 أخيراً اتفق مبارك وأعيان الحاره على أن يدفعوا مبلغاً مفصولاً كل عام للتفكجي 00 مقابل رفع رجاله عن البئر 00

قال لهم جوهر :

- أنا أوصل المبلغ إليه .

حمل جوهر المال 00 وذهب في نفر من خيالته إلى الجماقيه 00 نادى السباهي قائد فرسان القابيقول :

- هاك المال الذي فرضه سيدك التفكجي 00

مد السباهي يده 00 كان السيف عارياً تحت عباءة جوهر 00 طارت يد السباهي في الفضاء 00 خر مغشياً عليه 00 تناول جوهر

-42-

اليد المقطوعة 00 ربطها في عنق السباهي 00 وضعه على حصانه وقال للعسكر :

- اسحبوه إلى التفكجي وقولوا له :

هذا مصير كل يد تمتد لتسلب مال الفقراء 00

من يومها لم يعد أحد يرى التفكجي 00 أو أياً من رجاله في الحارة 00 أما السباهي قائد فرسان القابيقول فقد سمي بعد ذلك " الأقطع " .

تنهد مبارك وهو يسترجع نفسه من تدفق الذكريات :

– حسبنا أن تيمور الضرغام أشر من فيهم 00 حتى رأينا سطوة التفكجي باشا .

قال جوهر :

– دعوت على عمرو فمات فسرني
فعاشرتُ أقواماً بكيت على عمرو

علق فرج السويسي :

– ما إجانا من الغرب 00 إللى يسر القلب .

التفت جوهر لعبدالوهاب :

– هل مررت على مصبنة الكاشف وسألت عن مصطفى كما طلبت منك ياعبد الوهاب 00

انتبه عبد الوهاب من شروده وقال :

– نعم يا عماه 00 أخبرني عمه إنه يخطر على البدو في النقب بالقماش والصابون والعطاره وأنه سيعود هذا الأسبوع .

قاطعه مبارك :

– ما أظن تجارة الصابون والعطارة سبباً كافياً لابتعاده عنا 00

-43-

إن أي غلامٍ من غلمان عمه في المصبنه يستطيع أن يوفر عليه هذا العناء 00 لماذا يهتم رجل مثله بهؤلاء البدو ؟ إن تجارته مع مصر مزدهره 00 وهو يصدر إلى ميناء بولاق الزيت والصابون والدخان ويستورد منها الأقمشه 00 وله وكلاء معتمدون في كل المدن والقرى المحيطه بغزه

دخل المضافه محمد 00 كبير أبناء عبد الوهاب 00 فعلم الجميع أنه يحمل رسالة من أمه الجازيه إلى أبيه 00 تبسم جوهر وهو يراقب تهامسهما :

- اللهم اجعله خير .

أشار عبد الوهاب لولده بالانصراف .

لم يكد ينصرف حتى دخل ولده الثاني محمود وهمس في أذنه 00أدرك الجميع أنها الرساله الثانيه 00

ثم جاء أحمد أصغر أولاد عبدالوهاب وهو في الثالثه من عمره فامتلأت بهم المضافه .

قال جدهم مبارك :

الأفضل أن تلبي النداء وإلا فسوف ترسل الجازيه بناتها أيضاً في طلبك

ضحك عبد الوهاب ونهض يسوق أولاده الثلاثه 00 فر الصغير من قبضته ولبد في حضن جوهر :

- أريد جدي جوهر .

احتضنه جوهر وأشار لعبد الوهاب :

- دعه لي 00

هجم الولدان الآخران على جوهر واحتميا وراء ظهره .

- نحن أيضاً نريد جدنا جوهر .

-44-

قال جوهر :

- دعهم 00 والله ما يصعب علي شيء كما يصعب على فراقهم .

ثم تأسى :

- مشيناها خطى كُتبت علينا
ومن كُتبت عليه خطى مشاها

وأكمل في سره

- ومن كانت منيته بأرضٍ
فليسٍ يموت في أرض سواها

تذكر جوهر المره الأولى التي قرر فيها الذهاب للحبشه 00 كانت النجاشي في سكرات الموت 00 حين فتحت عينيها 00 مدت يدها وأطبقت على كفه بأصابعها المرتجفه 00

– عدني أنك سوف تعود إلى ملك أبائك وأجدادك يا هيللا 00 حتى أموت قريرة العين 00

ابتسم لها 00 وربت على يدها المعروقه :

– أعدك يا أماه 00

ستدق طبول كثيرة في الغابات 00 وتوقد النيران في شعاب الجبال 00 وتنتصب الموائد 00 وحلقات الرقص والغناء 00 إبتهاجاً بعودة الملك 00 الملك الذي لا يُظلم عنده أحد .

هل تقسم يا هيللا إبن مانويل 00 إبن مارا ؟!

– أُقسم يا أماه .

ما أن أغمضت النجاشي أجفانها 00 حتى انطلق إلى الغرب على ذلول كان قد أهداه له يونس 00

-45-

بعد مسيرة يومين من المضارب استيقظ ليجد يونس على رأسه 00 أدركه بعد أن جد براحلته طوال الليل 00 قال له يونس :

– لا أتركك تذهب وحدك 00 نذهب معاً أو نبقى هنا معاً 00 وإذا قررت الذهاب 00 فلن أسألك عن وجهتك ولو كانت آخر الأرض 00 فلست بالذي يترك أخاه 00

لم يطاوعه قلبه على حرمان الشيخ راكان من ولده فعاد مع يونس 00

رجع عبد الوهاب إلى المضافه وهو يسند رجلاً هزيلاً ناحلاً مهلهل الثياب 00

– هذا شكري البعبوز ياعماه 00 أصر على أن يودعك 00 رغم ما ترى من مرضه وسقامه 00

هتف محمد الجرو :

– شكري البعبوز انقطعت أخباره منذ أشهر 00 حسبته يأكل جوزاً ولوزاً في اسطنبول عند ابن عمه نظمي بيك .

سلم شكري على الحاضرين وهو يغالب دموعه

– حسبي الله ونعم الوكيل 00 حسبي الله ونعم الوكيل

أنصت الحاضرون في انتظار جلية الأمر

– رفضنا بيع فخارنا في حلب 00 قلنا نصل إلى اسطنبول 00 فنبيعه بأضعاف ثمنه 00 ونقابل ابن عمنا نظمي بيك 00 فيغدق علينا مما أعطاه الله .

أخذته نوبةُ بكاءٍ 00 قام إليه مبارك يربت على كتفيه

– لا بأس عليك يا شكري 00 تجلد وأخبرنا بما جرى معك .

– وقعنا في قبضة كوجوك علي .

شهق رضوان البطش :

– باشا بياظ ؟؟!

استنكر عبد الوهاب :

– هل وصلت الحال بهذا الأفاق أن ينهب الفخار ؟

تابع شكري :

– ليت الأمر وقف عند الفخار والحمير الهزيله التي تحمله 00 لقد

أخذنا للسخره 00 أمرنا بإعادة بناء قلاعه التي جرفتها السيول 00 قلاعٌ وهميه على رؤوس الجبال يبنيها من الطين ويطليها بالجير لكي يوهم (الصُره أميني) رئيس قافلة الحج 00 بأنه قادرٌ على إبادة قافلته 00 إذا لم يدفع له مكافأةً جزيله لتأمين مرور الحجاج .

أنهينا بناء القلاع في شهر واحد 00 أعدنا طلاءها بالجير 00 لكنه لم يطلق سراحنا 00 قال أنه سيفعل ذلك بعد مرور قافلة الحج 00 شددَّ علينا الحراسه 00 ذات ليله سكر الحراس سكرةً شديده 00 أسر لنا أحدهم بأن سيده يحتفظ بأمثالنا كل سنه 00 لكي يشنقهم على طريق القافله 00 فيملأ قلوب الحجاج بالرعب 00 ويقنع (الصُره أميني) بأنه يطارد قطاع الطرق ليل نهار ويعلقهم على المشانق لكي يؤمن مرور قافلة الحج بسلام 00 وهكذا يدفع (الصُره أميني) المكافأه التي يبالغ كوجوك علي في تحديدها فدية للقافله .

نام الحراس بعد سكرتهم تلك 00 ولينا الأدبار فارين بأرواحنا 00 لم نتوقف عن الركض إلا في اسطنبول .

سأله جوهر :

– وهل قابلتم نظمي بيك ؟

– رفض نظمي مقابلتنا 00 أمر حراسه بوضعنا على أول سفينة مغادرة إلى يافا 00 حتى لا يعلم أحد في اسطنبول بقرابتنا له .

-47-

شخر محمد الجرو :

– باطل يا نظمي 00 الدم صار ميه ؟؟

قال فرج السويسي :

– بتستاهلوا ما جرى عليكو 00 رايحين لطيز القرد تشموها 00 أي هوَّه عمرو نظمي شخ على جرح مسلم [1] .

وقف شكري البعبوز يعانق جوهر مودعاً ثم انصرف وهو يمسح دموعه .

تناول فرج السويسي بكرج القهوه ودار على الحاضرين وقد خيم عليهم صمتٌ ثقيل .

سكت نقيق الضفادع في بركة قمر 00 سكت غناء الجنادب والزيزان فوق أغصان الجميز 00 سكت عواء بنات آوى في عراء الحقول 00 هبت نسمةٌ بارده 00 نظر مبارك من فرجة الباب إلى السماء الملبده بالغيوم :

– لعلها تمطر 00 الزرع أوشك أن يجف 00 من يصدق أن آذار كله قد مر دون أن ترتوي الأرض بسحابةٍ واحده 00 إذا لم تمطر الآن فسوف نجوع في العام القادم 00 والتفكجي باشا لن يرحمنا

قال الحاضرون :

– فال الله ولا فالك

حذرهم رضوان البطش :

1. هذا المثل (يُقصد به) أن نظمي لم يساعد طوال عمره 00 على شفاء جرح مسلم حتى لو كانت هذه المساعده لا تكلفه شيئاً سوى أن يبول على الجرح .

-48-

– لقد رأيت رفاً من طيور القطا يرد بركة قمر 00 وسنة القطا نام بلا غطا 00 يعني لو نيتها مطر لرشرشت .

واصلوا ارتشاف قهوتهم وقد خيم عليهم شبح التفكجي .

– السلام عليكم .

هب الجالسون هبة رجلٍ واحد 00 وقد هزهم وصول مصطفى الكاشف 00 عانق مصطفى الحاضرين حتى انتهى إلى مكان جوهر .

– حجٌ مبرور وسعيٌ مشكوروعودٌ حميدٌ إن شاء الله 00

تأمله جوهر 00 ما زال كيوم رآه أول مره 00 وسيماً 00 قسيماً 00 إلا أن الشمس قد لوحته 00 فازداد سمرة 00 لولا بياض فوديه 00 لحسبته في مقتبل العمر .

أفسح له مبارك مكاناً بينه وبين عبد الوهاب .

قال جوهر :

– كنت أخشى أن أسافر قبل أن أحظى بوداعك 00 عرجت على المصبنه فأخبرني عمك أنك تخطر بالعطاره على بدو النقب .

قال رضوان البطش مازحاً :

– لعله أصهر إلى التياهه أو الترابين 00 ففضل صحبتهم على صحبتنا00 ضحك الكاشف ولم يعلق .

قال مبارك :

– يا مصطفى إن صحبتنا معاً هي ألزم ما تكون 00 فأنت صاحبت تاج الدين أول زمانه 00 وأنا صاحبته آخر زمانه 00 لعلك تنقل إليَّ ما فاتني من خبره معك 00 أو أنقل إليك ما فاتك من خبره معي 00 أما هؤلاء البدو فما أظن لديهم النقود لشراء عطارتك 00 ما أظنهم إلا يبادلونك بها بيضاً أو شعيراً 00 أو يستدينون منك على الموسم

–49–

القادم 00 أو ربما غزوهم القادم 00 فكل مرةٍ يغضب الوالي على غزه يبيحها للبدو الذين ينهبون ما تصل إليه أيديهم .

ضحك مصطفى الكاشف وهو يهمس في أذن مبارك :

– لن يكون هناك غزو قادم يا مبارك 00 أنا في طريقي لردم الهوه التي حفرها الأتراك بين البدوي والفلاح 00 وعما قريب ستسمع ما يسرك .

ثم التفت إلى جوهر وقال له :

– أخشى أن تحرمنا من ربابتك يا جوهر بعد أن تحج 00 هلا أسمعتنا شيئاً على الربابه نتزود به أو نتودع منه .

تناول جوهر ربابته المعلقه في صدر المضافه 00 قربها من النار حتى اشتدت 00 ونصب غزالها حتى استقام وترها 00 وبدأ عزفه الشجي

وإن رعيت ارعى النوار
والمرعي لا ترعى فيه
وان حمَّلت وحِمْل جمال
والقعود بالعين تراعيه
وان قنيت اقني المهار
على قد ايدك بتربيه
وان ماشيت وماشي رجال
والهامل اوعى تماشيه
يبقى رفق الهامل عار 00
آخر النهار تتعاير فيه

(6)

اسطنبول كلها كانت هناك 00 اليوم عرسٌ ملكي لا يجود الزمان بمثله .

الأمير اسماعيل باشا 00 ابن محمد علي وشقيق ابراهيم 00 سيعقد قرانه الليله على الآنسه زهره خانم 00 بنت المنلا عارف بيك 00 أكبر علماء الدين في اسطنبول .

ترجل نظمي بيك من عربته على بوابة قصر المنلا 00 في الحديقة كانت فرقة الدراويش تنشد المدائح النبويه 00 وأفرادها يتطوحون من الوجد 00 تفحص نظمي بيك ألوان ثيابهم وطراطيرهم وقال في نفسه : حتى الدراويش جاءوا لمجاملة المنلا 00 استمع إلى انشادهم وهم يضربون الطبول والصاجات .

اللهم صلي على المصطفى
سيدنا موحا محمد 00 والأهل الكرام
ادخلوا المدينه وصلوا عليه
قولـو يا نبينا يا محمد عليك الســـلام
قولـو يا نبينا يا محمد عليك الســـلام

تأمل النوافير تصعد بالماء في جنبات الحديقة مؤتلفةً مع أصوات الدراويش 00 أحس بالسكينه والرضى 00 وداخلته الخيلاء .

حين وصل إلى القاعه استقبله المنلا بحرارة بالغه :

– أهلاً بصاحب الصليان 00 أنت والله تستحق كل خيرٍ يا نظمي 00

ثم تابع بصوتٍ جذل يتسم بالفخامه 00 وكأنه يخطب على منبر محمد الفاتح في أياصوفيا .

– في الحديث الشريف (الخير في شامنا ويمننا) 00 ها هي خيرات الشام تحلُ عليك 00 ومن يدري ربما تبعتها خيراتُ اليمن أيضاً .

تضاحك الحاضرون وأفسحوا الطريق للضيف 00 اتجه إلى المنصه الرئيسيه حيث يجلس العريس الشاب ، قدم له التهنئه 00

وصافح الآخرين الذين يحيطون بمجلس العريس 00 وحين وصل إلى مجلس قاضي الأحناف في اسطنبول قبل يده وهو يقول :

– إن قراناً تعقده بنفسك يا مولاي سيكون مشمولاً بالبركات 00

ناداه صديقه عزت بيك ياور السلطان وأفسح له مكانًا إلى جانبه ليدور بينهما حديث هامس .

– ماذا فعل صديقنا قاسم أغا ؟

– قاسم أغا الآن في دمشق الشام 00 ومعه إبن السقا أميني الذي اختاره مساعداً له 00 وقد كتب لي أن العمل جار على قدم وساق في اعداد القوائم بأسماء أصحاب الحرف والدكاكين الذين يشملهم الصليان لقد انتهوا من احصاء حارة الميدان وباب السريجه 00 والقنوات 00 وهم في طريقهم لاحصاء الباقين

دعك من قاسم أغا 00 ما هي أخبار مولانا الباديشاه ؟؟

اعتدل عزت بيك في مجلسه 00 وتناول نفساً عميقاً من أرجيلته 00 فقد تعود ألا يجود بأخبار السلطان إلا لذوي المكانه والحظوه 00 من أمثال صديقه نظمي بيك00

– بالأمس رأى السلطان من شرفته في قصر يلدز رجلين وامرأه يتنزهون على الجياد سألني عنهم 00 قلت لجلالته هذا هو الوزير

–52–

الروسي المفوض بوتينيف وزوجته وخادمهما 00

قال السلطان :

– شاكوزال 00 لو أن واحداً من أحقر خدمي خرج للنزهه 00 شراب أميني مثلاً 00 لجرَّ وراءه ذيلاً من عشرين خادماً على الأقل 00 وأغلق بهم شوارع اسطنبول 00 أسف والله 00 لا نفع فيكم .

أغرقا في الضحك 00 سمع شراب أميني اسمه فتقدم إليهما يسبقه كرشه الكبير ، تراقصت ذؤابتي شاربه الكث وهو يغمز لهما :

– هذا بيت شيخ الإسلام 00 والاستغابه فيه سيكون اثمها مضاعفاً كما لو كانت في الحرم الشريف 00 ماذا قلتما عني ؟؟

– كل خير 00 كل خير يا كبير السقاه 00 تفضل وشاركنا الجلوس حتى لا نواصل استغابتك 00 جلس معهما 00 أقبل الخادم بأكواب الجلاب [1] وقد طفت أعلاها حبات الصنوبر المنقوع 00 ارتشفوا الشراب المثلج 00 ومضغوا حبات الصنوبر بتلذذ .

في ركن القاعة الآخر كان القابودان باشا [2] يواصل تشدُقه بانتصاره الكبير على باشا بياظ 00 كوجوك علي 00 وكيف حاصره بأسطوله ودَكَّ قلاعه عشرين يوماً 00

– قلاعٌ رهيبة محصنةٌ فوق رؤوس الجبال كأنها أعشاش النسور 00 ولكن على من ؟ على القابودان باشا ؟ أمان يا ربي أمان 00 فتحت عليه بوارجي أبواب الجحيم إلى أن جاءني وقد ربط محرمته في عنقه صاغراً يطلب الأمان

أسر شراب أميني لصديقيه :

1. الجـــلاب : نقيع الزبيب
2. القابودان باشا : قائد الأسطول العثماني

– لا تصدقا شيئاً يقوله هذا الطبل الأجوف 00 كوجوك علي بعد نهبه للباخره الهولنديه 00 التي ألجأتها العاصفه إلى شواطئ بياظ 00 ابتعد برجاله إلى الجبال البعيده عن الشاطئ 00 وهكذا قصف القابودان البيوت الخاليه ثم نزل برجاله إلى الشاطئ 00 ونهبوا السكان المحليين حتى قضوا على ما لديهم من المؤن 00 لم ينقذ القابودان ورجاله من

الموت جوعاً إلا كوجوك علي الذي عقد معهم صفقة دنيئه 00 أعطاهم بعض منهوباته من الباخره 00 وزودهم بالطعام والشراب 00 مقابل تعهد القابودان بأن يلتمس له العفو عند السلطان 00

وبالفعل أنعم السلطان على كوجوك علي ببنجق ثالث 00 وبفرمان عفوٍ كرر فيه بلا جدوى أوامره لكوجوك علي 00 بإعادة البضائع المنهوبه من الباخره إلى أصحابها .

في ركن آخر كان خسرو باشا العجوز وحوله مجموعة من الباشوات 00 يتبادلون حديثاً جاداً حول الوضع في جزيرة القرم 00 ومطامع روسيا في أراضي السلطنه .

أما حسين 00 باشا ودين الرهيب فكان يحدث محمد سليم باشا حول مغامراتهما سوياً أيام حرب الإنكشاريه 00 قال عزت بيك ياور السلطان لنظمي هامساً وهو يشير إليهما :

– لقد أغرقا بعد أن فرغا من إبادة جيوش الانكشاريه ستة آلاف امرأه من نسائهم في مياه البوسفور خشية أن يكن حبالى وأن يلدن انكشاريين جدد يقضون مضجع السلطان .

بعد أن انتهت مراسيم الزواج غادر نظمي بيك منتشياً بما حققه من مجد 00 يرافقه صديقه شراب أميني 00 الذي هتف بالسائق بعد أن اجتاز بالعربة بوابة القصر :

-54-

– إلى بيت القهرمانه 00

قال نظمي بيك :

– لاحظت أن القابودان خليل باشا عند انصرافه قبل يد خسرو باشا 00 كيف يفعل القابودان ذلك وهو صهر السلطان ؟

أجابه شراب أميني بعد أن نفخ صدره بكبرياء العارف ببواطن الأمر :

– خليل باشا ابن القفقاس 00 كان رقيقاً لخسرو باشا في طفولته 00 عينه خسرو ضابطاً في الجيش النظامي الجديد معلم إشكلنجي الذي أسسه السلطان محمود ليحل محل الانكشاريه 00 برزت مواهب خليل في حملة الموره 00 أوصلته شجاعته في الحرب مع الروس إلى لقب باشا 00 وما رأيته اليوم نوع من عرفان الجميل لخسرو العجوز .

فكر نظمي بيك 00 السلطان يزوج ابنته لرقيق من القفقاس 00 لو كان السلطان عربياً لما فعل ذلك 00 العربي لا يزوج ابنته إلا لمن يعادله في الحسب والنسب .

قال شراب أميني :

– لقد وجدت القهرمانه طلبك 00 عذراء من البلقان 00 بيضاء 00 فارعة الطول 00 في الرابعة عشره من عمرها اسمها جوزال 00 ماعليك يا صاحبي إلا أن تحل

تساءل نظمي :

– أحل ماذا ؟!

– الإثنين 00 الكيس والدكه

أغرقا في الضحك 00 استل نظمي زجاجةً من جيب مقعده في العربه وكرع منها حتى ابتل اواره 00 ناول الزجاجه لشراب أميني 00 شربا حتى اعتدل مزاجهما .

-55-

سأله شراب أميني فجأه :

لماذا لم تتزوج 00 ألا تُحب أن يكون لك عائله وأولاد ؟؟ !!

لم يفاجئه السؤال 00 فكثيراً ما سأله لنفسه دون أن يحير جواباً 00

لقد أحب سكينه في مطلع شبابه ولكنها صدته بقوه 00 كان زوجها الأول قد مات ولم تطاوعه نفسه أن يتزوج ثيباً وهو الشاب العائد

من اسطنبول متباهياً ببدلة القول أغاسي 00 استمر في مطاردتها واستمرت في صده حتى تزوجها الفار 00 لقد وشم اسمها فوق صدره 00 وحين كشف لها موضع الوشم ضحكت وهي تقول :

– أنا امرأه حرة 00 ولن ينالني رجل إلا بالزواج ولو وشمت جسده الأبالسه .

ما كاد يشفى من حب سكينه 00 حتى وقع في حب خضره فلما امتنعت 00 لم يكن أمامه سوى بنات الهوى 00 يضيع في احضانهن أيام عمرٍ انسربت من كفه كما ينسرب الماء 00 ها هو في الخامسة والستين بفودين أشيبين وشارب يختلط بياضه بسواده 00 بهلوانٌ يلعب على كل الحبال 00 وحتى الحبال المهترئه الآيله للسقوط 00 دون أن تزل قدمه أو يسقط من عليائه .

بدأ وكيلاً لأحمد باشا الجزار 00 مات الجزار 00 أصبح وكيلاً لاثنين من اتباعه كل منهما يزعم أنه والي عكا 00 اسماعيل باشا الذي أخرجه حاييم فارحي من السجن ليوليه البشالك 00 وسليمان باشا قائد عسكر الجزار الذي تصادف وجوده على رأس محمل الحج الشامي في مكة عند موت سيده الجزار 00 وانه ليقسم بشرفه أنه كان مخلصاً لكليهما دون أن يحابي أحدهما على الآخر 00

–56–

ودون أن يعلم أي منهما أن وكيله في اسطنبول هو وكيل عدوه اللدود في الوقت نفسه 00 هزم سليمان اسماعيل 00 وفاز وحده ببشالك عكا 00 ظل وكيلاً لسليمان حتى موته 00 تولى ربيبه عبد الله سدة الولايه 00 و بقي وكيلاً مخلصاً لعبد الله الذي سمى نفسه الجزار 00 كما بقى معلمه حاييم فارحي أميناً للخزانة في عكا 00 وهل يجود الزمان بمثل الخواجه حاييم 00 تربع على كرسي خزانته يقيم والياً ويقعد آخر 00 حتى افترسه

(عبد الله الجزار) ليضمن أن صانع الولاة العجوز لن يستعيض عنه بوال آخر .

حين وصلت العربه مسجد السلطان أحمد كانا قد أتيا على ما في الزجاجه 00 أحصيا مآذن المسجد فوجداها سبعه 00

قال شراب أميني :

– زادت مئذنه واحده 00 ولو شربنا زجاجة أخرى لأكملنا عمارة المسجد 00

ثم أخذا في الغناء :

أمان يا لا للّي
يا للّي أمان
أمان يا لا للّي
يا لالالا آه يا للّي
يا للّي آه 00 آه يا للّي

(7)

سحبت زينب البتير قرامي الحطب المشتعلة من تحت الموقد 00 وفرقتها 00 هدأت النار 00 خف غليان القدر 00 فاج البخار المتصاعد منها 00 كشفت الغطاء 00 أخرجت بملعقة الخشب شختوره وضعتها في الكشكوله الفخار 00 فحصتها بأصابعها 00 ثم التفتت إلى ابنتها بدور 00

– دايبه دوب 00 روحي نادي خالك عشان يتغدى معانا 00

طارت بدور إلى بيت خالها الشيخ أنس 00 دقت الباب 00 فتحت لها زوجة خالها :

– هادا إنت 00 نعم 00 إيش عايزه يا ست بدور .

انفلتت بدور منها وركضت إلى الداخل تبحث عن خالها 00 ضربت بهيه كفاً بكف :

– هو المثل عمرو كذب 00 الحمايه حِمَّه 00 وبنتها العقربه المسمه وبنت بنتها إللي ما بتتسمى 00 بتقعد على الباب وبتقول إيش خالي جاب 00

كانت بهيه تناصب زينب البتير العداء منذ مات زوجها 00 ووقعت مسئولية تربية اليتامى على كاهل خالهم الشيخ 00 وكلما ازداد الشيخ أنس حدباً على أخته وأبنائها ازداد ضيق زوجته وتبرمها بهم .

لم تكن النفقه سبباً لذلك فأحوال الشيخ ميسوره 00 إنه يمتلك ثلث البد [1] الذي خلفه أبوه مراد البتير 00 إلى جانب ما يحصل عليه

1. البد : معصرة الزيتون .

-58-

كإمام للمسجد ناهيك عما يدره قلمه من كتابة عقود البيع والإيجار وحجج الإستحكام 00 والدجاج والبيض والحلوى والفاكهه التي تنهال عليه في الأعياد والمناسبات .

لم يكن الإنفاق على اليتامى ليضيق عليها في شئ 00 ولكن الوقت المبالغ فيه الذي يقضيه في بيت أخته يسامر أبناءها ويستمع إلى كل صغيره وكبيره في حياتهم هو ما كان يزعجها فتزوم مثل حية التبن :

– شاركوني في عمري .

وكثيراً ما حاولت لفت نظر زوجها لكي يقتصد في غدواته وروحاته إلى بيت أخته 00 فكان يحدجها بنظرة قاسيه ويمد كفه حتى يلامس أنفها مذكراً إياها بالحديث الشريف : " أنا وكافل اليتيم مثل هاتين " محركاً أصبعيه 00 مقترباً بهما من عينيها كأنه يهدد بفقئهما .

لبس الشيخ أنس جبته 00 ووضع عمامته على رأسه وخرج في أثر بدور وهو يقول بصوت حرص على أن تسمعه زوجته :

– من دعي فليجب 00 ولا يدخل الجنة قاطع رحم .

– الرحم 00 والا اللحم 00 الخبابيص إللي بتخبصهم إلك زينب 00 والله ما داهيتك غير كرشك 00

صفقت الباب خلفه :

– ما حدش إلو رحم إلا أنت 00 يا رب توب علي من شركة زينب البتير وأولادها 00

تنحنح الشيخ أنس 00 وهو يدخل بيت أخته 00

– يا ساتر .

تركت زينب قدر النحاس على النار يكدر بما فيه وهرعت لملاقاته

–59–

– الله ما يحرمني من هالطله 00 نورت الدار يا أخو 00

عانقته وقادته إلى الداخل .

– وين الأولاد ؟

لم يكد يكمل حتى خرج أولاد أخته من داخل البيت يتدافعون لملاقاته 00 هتف بأسمائهم وهم يقبلون يده الواحد وراء الآخر 00

– بدر 00 حمزه 00 سالم 00 سلامه 00 أخيراً وصل الدور إلى الصغيره بدور 00 تعلقت برقبة خالها 00 تريد معانقته حتى كادت تطيح بلفته 00 تناول اللفه بيده 00 ومضى إلى داخل الغرفه الطينيه وضع

اللفه على الرف 00 ثم خلع جبته وعلقها على الجدار 00 جلس على طراحة في الصدر 00 وسأل زينب :

– استوى السقط ؟

– داب 00 دوب 00 وصار بستاهل تمك يا أخو .

أحضرت اللقَّان [1] ووضعته أمامه ووضعت مرجونة الخبز إلى جواره 00 تناول رغيفاً قطعه قطعاً صغيره استقرت في القصعة التي أمامه 00 تناول أبناء أخته أرغفتهم وقطعوها 00 قام بدر إلى الموقد حمل قدر النحاس وصَّبه في اللقان 00 غمر المرق الخبز 00 واستقرت على وجه اللقان 00 الشخاتير المحشوه بالبرغل 00 ورؤوس الخرفان الثلاثه والمقادم التي أنهكتها النار 00 فاحت رائحة الدسم التي يتحلب لها اللعاب 00 سأل سلامه :

– لماذا لم تحضر معك زوجة خالي وعدله ؟

قال الشيخ أنس وهو ينتظر أن يفوج الطعام :

– زوجتي مشغوله 00 وعدله تساعدها .

1. اللقان : قصعه من الفخار .

-60-

قالت زينب :

– بخاطرها بهيه بنت بيرو [1] 00 بتروح سنين الغلا وبتيجي بدالها 00 والكبه عاللي الفطيره حروقت اديالها .

تجاهل الشيخ أنس تعرضها لزوجته وهو يعلم أن المعركه بين المرأتين أبديه لا طائل من ورائها 00 وجه حديثه للشباب 00

– ان شاالله بعد الحصيده بنفرح فيكم يا أولاد .

كان أولاد أخته الثلاثه قد خطبوا بنات عمهم جمعه00 الذي شارك الشيخ أنس في عبء تربيتهم والإنفاق عليهم 00 وقد قال له الشيخ أنس مازحاً في يوم خطبتهم :

– إذا بدك تملك دار أبوك 00 جوز بناتك لأولاد أخوك 00

لم يبق من أولاد أخته إلا سلامه 00 الذي طلب منه عدله 00 ولكن الشيخ أنس لم يحسم أمره بعد 00 فهو يخاف أن تنغص عليهما زوجته حياتهما 00 فهي تكره أخته وأولاد أخته ولا تتحمل سيرتهم 00

وسلامه ما زال صغيراً لم ينشف عوده لكي يتحمل مكائد النساء .

تولى بدر تفكيك الرؤوس وتفتيت لحمتها على وجه اللقان 00 وخص خاله بقسط وافر من المخ 00 شفط الشيخ أنس مخ الخروف بتلذذ 00 وتباسط مع ابن أخته :

– أنا كل عمري زُفَري يا خالي 00 بحب الزفر .

1. يقول العامه للتنديد بمن يتكبر عليهم والسخريه به
" ابن بيرو 00 إللي مافيش في الدنيا غيرو "

–61–

قال بدر :

– صحه وعافيه يا خال 00 الزفر مليح 00 بِرُم العظم .

أتى الآكلون على ما في اللقان 00 ومسحوا جدرانه بأصابعهم 00 حتى نظفوها تماماً 00 استقرت كومه من العظم الممصوص على الحصيره إلى جانب اللقان 00 جاءت زينب بالكراز وصبت على أيديهم

في الوعاء الذي أكلوا منه 00 غسلوا أيديهم وجففوها بمنديل حملته بدور 00 ثم جلسوا في انتظار القهوه .

قال سلامه لأمه وهي تعد القهوه في الفناء :

- إفتحي مع خالي موضوع خطبتي لعدله 00

نهرته أمه غاضبه :

إخرس 00 إنت لسه صغير 00 وعدله أكبر منك بسنتين 00 وأمها عدوتي اللدوده 00 والله إن جبت سيرتها على لسانك لأقصو .

انفلت عيار سلامه :

- أنا مش ابنك 00 أنا مليش أم 00 الكبار رحتي تجري لعمي وتبوسي إيديه عشان يعطيهم بناتو 00 أما أنا 00 العزا فيَّ بارد 00 والله ما أنا قاعدلك في هالدار 00

إنطلق إلى الشارع وهو يبرق ويرعد 00

- أنا شخت عليَّ الكلبه .

(8)

على حافة بركة قمر 00 جلست سكينه تدق ثوبها بقطعة من الحجر 00 وحولها نساء الحاره 00 وقد انهمكن بغسل الثياب 00 وعصرها 00 ونشرها 00 على أعواد البوص التي تحف بالبركه .

أمامهن الماء 00 وخلفهن الأرض الخضراء التي تشابكت فيها نباتات القريص والعلده وأبيات الخبيزه 00 والهندباء 00 والحميض 00 ولسان العصفور 00 ووسط هذه الخضرة الداكنه 00 انبثقت زهورٌ جريئه ملونه وزنابق بيضاء 00 انتزعت لها مكاناً بين النباتات الشرسه 00 فعطرت المكان بألوانها وروائحها00 سطعت شمس صافيه على مياه البركه 00 وهبت نسمات دفيئه 00 فتماوج وجه الماء .

أحست سكينه بالدفء يغمر جسدها كله 00 قالت لجارتها 00 زوجة عوده الريفي :

– ما إشي بستحي من أوانو 00 الدنيا صيفت .

خلعت الصبايا أثوابهن السوداء ونزلن إلى الماء 00 بما خف من لباس 00 متخذات من البوص الكثيف ستاراً يحميهن من أعين المتطفلين 00 تراشقن بالماء 00 وعدون خلف بعضهن 00 ضاحكات 00 عابثات .

عثرت إحداهن على قرعة ناشفه مما يستخدمه الصيادون في السباحه خلف طرائدهم من البط 00 والقطا 00 والدُّرُج 00 تنازعن عليها .

أخيراً صارت كل واحده تلقفها للأخرى وهن يتمايلن 00 بقاماتهن الممشوقه 00 أو يتقافزن 00 فتهتز اردافهن الصغيره 00 وتشب نهودهن الصلبه .

–63–

قالت سكينه في نفسها :

– ما أجملهن 00 لابد أنني كنت مثلهن في صباي 00 قبل أن يطمرني الحظ العاثر بين زوجين 00 أولهما عجوز طاعن لم يلبث أن تركني

أرملةً 00 والآخر عنين لم يزد على مواقعتي مرةً في السنه 00 أو مرتين 00 ثم فكرت 00 إن أشد ظلمٍ يقع على المرأه 00 حرمانها من إختيار رجلها 00 لماذا الإختيار فقط من حق الرجل مهما بلغ به السن 00 أو المرض 00 أو الفقر .

أكملت سُريَّه بنت رضوان البطش غسل ثيابها وعصرها 00 وحملتها على رأسها مودعةً سكينه :

– خاطرك يا ستي .

– لماذا لا تنشرين ثيابك على البوص حتى تجف 00 وتلعبين مع باقي البنات ؟

– أنشرها في البيت 00 فأبي يقول أن الثياب عوره 00 يجب أن تستر.

تذكرت سكينه أن والدها كان يقول فيما يزعم أنه حديث عن النبي :

– " عورتان فاستروهما 00 الطعام والنوم 00 ولكنه لم يذكر الثياب " .

قالت زوجة الريفي :

– رضوان تقي ورع 00 ولم يؤثر عنه في الحارة أي عيب أو سفه .

تذكرت سكينه :

– لم يسترق النظر إليَّ قط 00 كما كان يفعل الآخرون أيام صباي .

كان إذا صادفني 00 يغض بصره 00 وينتحي جانب الطريق 00 حتى يفسح لي .

أكدت تمام زوجة محمد الجرو :

-64-

– يكفي أنه ظل وفياً لإبنة عمه نواره 00 ولم يتزوج عليها 00 رغم أنها أنجبت له ثماني بنات على التوالي .

شردت سكينه بذهنها وهي تتأمل البنات في صخبهن ولهوهن وهتفت :

– ما أسعدهن صغاراً 00 وأهناهن بالاً 00 إن أيسر الأشياء كافٍ لإدخال السعادة والفرحة إلى قلوبهن البريئه 00 وعما قليل تكشف لهن الحياه عن وجهها الحقيقي00

وتلعب الصدفه المجرده دورها في سعادتهن أو شقائهن 00 دون أن يكون لهن يدٌ 00 أو حيله 00 أو خيار 00 ثم قالت في سرها وهي تستعرضهن واحدةً واحده :

– من سيكون لها حظ نواره 00 ومن سيكون لها حظيً العاثر 00 أنا الجميلة 00 العاقله 00 الولود 00 الودود 00 الله يكفيهم شر ميلة البخت 00 كان حظي الفقر والجوع 00 والحرمان الأزلي من الحب 00 من رجل حقيقي يملأ فراشي وحياتي .

أنا الشجره التي أزهرت 00 وعقدت 00 وأثقلتها الثمار موسماً بعد موسم 00 دون أن تقطف 00 أو تمتد لها يد 00 وفي كل موسم كانت الثمار تنضج وتلوح ممتلئة بالرحيق 00 ثم تتعفن وتسقط 00 وتتراكم تحت أذيالها هامدة تطمرها الرمال وأوراق الخريف 00 كثيرون هم الذين ساوموني على عرضي 00 كأن ترملي المبكر 00 وفقر أبي 00 وعجزه 00 قد أغرى الأوغاد وفتح شهيتهم 00 أكثرهم إلحاحاً كان نظمي الكلاغاصي 00 طاردني في كل أزقة الحاره 00 كان سافلاً 00 رقيعاً 00 عديم الشرف 00 لا يفيق من سكره 00 وأراد أن ينالني كجائزة على تخرجه من إسطنبول 00 وعودته ببدلة القول أغاصي 00

التي يقضي الليل في تلميع أزراها 00 لا أنسى صدمته وخيبة الأمل

التي ظهرت على وجهه حين قلت له : " إنني إمرأة حرةٌ ولا سبيل إليَّ إلا بالزواج 00 "

فغر فمه 00 ونظر إلي كما ينظر المرء إلى معتوه 00 ثم اختفى في الزقاق وهو يسب ويلعن 00 بعدها برَّح به الشوق 00 ولكنه بدل أن يتزوجني 00 وشم إسمي على صدره 00 ثم جاء الفار 00 فتعلق به والدي كما يتعلق الغريق بالقشه 00 قال لزوجته بعد أن كتب كتابي : " البنت خَرْيَه 00 والشاطر إللي بلزقها في دقن غيرو " .

ورضيت بالهم 00 وصبرت على غلبي معه 00 على أمل أن يساعدني في تربية أولادي 00 وحتى هذه عجز عنها الفار 00 أخذه الطاعون وأخذ ولدي البكر 00 وصرت لا غريبه 00 ولاعند أهلي .

ذرفت سكينه دمعتين 00 ولو تركت لبكت اليوم بطوله 00 ولكن " الكشوره " كبرى زوجات فرج السويسي 00 جاءت تحمل صُرتها 00 إندست إلى جوار سكينه 00

وألقت غسيلها في الماء 00 تناولت حجراً 00 وبدأت دقه وإزالة الأوساخ عنه 00

لم تكن سكينه تحبها 00فهي جادةٌ 00 مقطبة دائماً 00 لا تحب المزاح ولا تتقبله من أحد .

قررت سكينه التخلص منها 00 فاستعادت مزاجها الرائق :

- كيف حال جوزك يا إم حسن ؟

ردت المرأة وقد أوجست خيفة 00 فهي تعرف سكينه وسلاطة لسانها :

- الحمد لله بخير .

واصلت سكينه مداهمتها:

- إن شالله بِسْوي [1] .

حملت الكشوره غسيلها 00 والماء يسيل منه على ثيابها ورأسها 00 وفرت بعيداً عن سكينه 00 ألقت غسيلها على الأرض 00 وتناولت حجراً وأخذت تدق بعصبية

أغرقت نساء الحاره بالضحك 00 كركرت سكينه وقد نسيت دموعها .

1. بِسْوي : يعدل في الفراش بين زوجتيه .

(9)

استأذن قاسم أغا العقيلي في الدخول على الخواجه روفائيل فارحي أمين الخزانه في دمشق 00 وبعد أن قدم الهدايا التي أحضرها له من اسطنبول 00 سلمه رسالة من ابن عمه حزقيال فارحي يوصيه بمساعدته في إنفاذ الصليان .

فض روفائيل الرساله وقرأها باحترام بالغ 00 ثم التفت إلى قاسم أغا :

– أبشر يا قاسم أغا 00 سوف نعمل جهدنا لإنفاذ أوامر السلطان 00 ولن نبخل بأي جهد أو مشوره .

– شريكي نظمي بيك البيرقدار يعول كثيراً على مساعدتكم 00 وهو ربيب أخيكم المرحوم حاييم فارحي 00 وطالما سمعته يشيد به ويثني على حكمته وحصافة عقله 00 وذكائه 00 والحقيقه أن وفاته كان خسارة كبرى لا تعوض 00 البركه فيكم وفي أنجالكم يا خواجه روفائيل .

تنهد روفائيل والحسره تلوح على محياه :

– أين نحن من المرحوم حاييم الذي كان فخر زمانه 00 وذخر أقرانه 00 والذي مدحه الشعراء من أمثال الشاعر نقولا الترك والشاعر بطرس كرامه وغيرهم 00 وأكثر ما يحز في النفس يا قاسم أغا أنه مات بلا عقب يخلفه 00 لقد اغتاله هذا الكلب العقور عبدالله الجزار 00 وصادر أمواله 00 رغم كل ما قدمه له من الخدمات وصدق القائل : " اتق شر من أحسنت إليه " .

دخل عليهم داوود ابن الخواجه روفائيل حياهما 00 وجلس إلى جوار والده :

– هذا ولدي داوود قدم علينا من مصر في زيارة قصيره 00 إنه يعمل في خدمة محمد علي 00 باشا مصر 00 أنت تعرف يا قاسم أغا المكانه التي وصل إليها محمد علي بعد انتصاراته في الجزيره والموره 00 لقد أنعم السلطان عليه بولاية كاندي 00 وكريت ومن يدري قد ينعم عليه بولاية الشام ذات يوم 00

قال قاسم أغا :

– بارك الله فيكم يا آل فارحي 00 وأبقاكم ركناً لهذه الدوله .

عقب روفائيل وقد نفخ الفخر أوداجه :

– منذ قدمت أسرتنا من الأندلس إلى الأناضول هرباً من محاكم التفتيش 00 ونحن نضع أنفسنا في خدمة سلاطين بني عثمان في الآستانه ودمشق 00 وصيدا 00 وحلب 00 إن الصرافة وخزانة الأموال واستثمارها 00 هي حرفتنا الوحيده التي توارثناها أباً عن جد 00 ونسأل الله أن يقدرنا على خدمة السلطان بكل أمانة وإخلاص 00 هل سلمت هدايا للباشا والكخيا والتفكجي والأضباشي وباقي الأغوات حتى تضمن تعاونهم معنا ؟؟

هز قاسم أغا رأسه :

– أكيد يا خواجه 00 الكل دب خواصرو .

قال روفائيل :

– معلوم 00 معلوم إطعم التم تستحي العين 00

ثم سأل :

– ماذا عن القبضايات ؟

قال قاسم أغا :

– أي قبضايات ؟

– كل حاره إلها قبضاي ولزوم قبل ما ندخل الحاره نشوف خاطرو .

تنهد قاسم أغا وقد أوجع قلبه كثرة ما دفع من الرشاوي والبلصات .

– حاضرين 00 إن شاالله نشوف خاطر الكل .

– إذاً على بركة الله 00 نبدأ غداً في تسجيل الحارات ولا يكون خاطرك إلا راضي .

ودع روفائيل ضيفه إلى الباب 00 وعاد إلى حيث يجلس ولده .

– إذن فيهود أوروبا على إتصال بمحمد علي .

– نعم وقد زاره وفد منهم محمل بالهدايا 00

– هل تحدثت معهم 00 كيف هي الأحوال في أوروبا الآن ؟

– آل روتشيلد يواصلون إحكام قبضتهم على دول أوروبا من خلال المحافل الماسونيه والجمعيات السريه 00 ويواصلون تجنيد العملاء وتربيتهم وإعدادهم للإضطلاع بالأدوار المطلوبة منهم 00 حين يتم زرعهم في المناصب الحساسه لإستخدامهم في الوقت المناسب .

تنهد الخواجه روفائيل :

– لم يكن أحد يتصور أن آل روتشيلد 00 سينجحون كل هذا النجاح منذ ثلاثين عاماً لم يكن أحد يسمع بهم 00 واليوم لا يُذكر أي حدث في أوروبا 00 إلا وذُكر معه آل روتشيلد 00 أنا أعرف والدهم أمشيل وأمهم جوتاسنابير 00 لقد زرتهما في منزلهما الخشبي بشارع اليهود في فرانكفورت 00 جنوب ألمانيا 00 كانا يسكنان الطابق الأول ويتخذان الطابق الأرضي حانوتا لهما 00 لقد كانت الزوجه تعنى بالمحل حينما يطوف الزوج المدينه على عربة خشبية تحمل البضائع

بعدها وصل أمشيل إلى فريدريك الثاني مديراً لثروته التي تعادل مائة مليون فلورين .

قال داوود كأنه يلوم أباه :
– في علم 1812 قسم أمشيل روتشيلد عواصم أوروبا بين أبنائه الخمسة 00 أقام كل واحد منهم في عاصمه وتعاونوا في العمل 00 لم يكونوا رجال مال وبنوك فقط 00 وإنما عملوا في التجارة والصناعه والإحتكارات الكبرى 00 وأصبحوا مستشارين لرجال الحكم 00 ودائنين للملوك والحكومات 00 ثم ما لبثوا أن سيطروا على البورصه بعد أن نهب ناثان من الإنجليز بحيلته الدنيئه في واترلو 00 خمسة ملايين جنيه في يوم واحد 00 وأصبحت الأسهم والسندات لعبة في أيديهم يرفعونها متى أرادوا ويكسبون منها الملايين 00 وفي عام 1815 قلدهم امبراطور النمسا أوسمة من درجة فارس 00 ثم ما لبث أن أنعم على كل واحد منهم بلقب بارون 00
فما الذي جناه آل فارحي من خدمة سلاطين بني عثمان وولاتهم ؟ ما زال رعاياهم يعاملوننا على أننا كفره 00 ويتحينون الفرص للإيقاع بنا 00 هذا إذا لم يبطش بنا الولاة كما فعل الجزار بعمي حاييم .
– إهدأ يا داوود 00 قد لا نكون أغنى ولا أكثر نفوذاً من آل روتشيلد ولكننا نحن آل فارحي أكثر منهم قيمة وأهمية 00 فنحن نتزعم يهود سوريا 00 ونهيئهم طلائع وروادا لشعب الله المختار الذي سيعود إلى أرض الميعاد طال الزمن أو قصر 00 ولن يكون يهود أوروبا 00 بما فيهم آل روتشيلد إلا أتباعاً لنا 00 نحن يهود الشرق 00
فلا تسارع بالحكم على الأشياء قبل أن تنضج ويحين أوانها 00 والآن إذهب لتنال قسطاً من الراحه فعليك غداً رحلة شاقه .
قام روفائيل 00 فنهض ولده وشيعه إلى الباب .

(10)

انتهوا من الحصاد بعد موسمٍ شح فيه المطر 00 بخلت الأرض كما بخلت السماء 00 لم ترتفع السنابل إلا شبراً واحداً 00 كان بعضها فارغاً 00 قسموا القش الذي جمعوه ثمانية أكوام ليختار المتسلم واحداً منها يضع عليه حراسه حتى يتم درسه وتوصيله إلى مخازنه قبل أن ينصرفوا إلى درس أكوامهم 00

كان بعضهم مشغولاً بإصلاح ألواح الدرس 00 وبعضهم يُعد المناسيس والمذاري 00 أما الذين اثخنتهم الحصيدةُ بالجراح 00 فقد انصرفوا إلى علاج أكفهم التي أدمت باطنها القواليش 00 وتكفلت أصناف الحصى بظاهرها .

قال السويسي 00 وهو يلوك حبات الجميز الناشف في فمه :

– صرنا زي حمير الحجاره .

مبارك لم يكن سعيداً أبداً بما رأى ، قال لوجوه الحاره الذين تحلقوا حول بكرجه :

– ما أظن التفكجي باشا يقبل بهذه الحصه 00 لقد أقنعنا الخواجه داوود إبن موسى عدس بتمديد مهلة السداد لأهل الحاره عاماً كاملاً ورضينا بمضاعفة الفائده المترتبة علينا 00 قلت له نحن زبائنك وقد جربتنا أعواماً طويله 00 تقرضنا البذار ونعيده لك بعد الحصاد الكيل ثلاثاً 00 أما وقد أمحلت هذا العام 00 ولم تغل الأرض لنا ما يحفظ أودنا 00 فإن عليك أن تصبر أو تطاردنا بالعسكر فتأخذ ربع مالك ونموت جوعاً 00 رضي بالانتظار للعام القادم 00

قال محمد الجرو :

– لا يموت الديب 00 ولا تفنى الغنم .

تنهد رضوان البطش وهو يرى الشباب يهزجون و يطوحون بمذاريهم في الهواء 00 لقد بلغ الخمسين ولم يرزق بولد 00 لو عاش ابنه البكر لكان الآن في الخامسه والعشرين من عمره .

نظر ضارعاً إلى السماء وتمتم :

– اللهم أنت الواهب وأنت المعطي 00 وأنت المطعم .

شخر فرج السويسي وهو يشاهد الشباب يدبكون حول الصليبه :

– لو أبو زيد واعي كان على همو ناعي .

سلامه أبوغوش أنهى توزيع القهوه على شيوخ حارته وانطلق من مجلسهم إلى حلقة الشباب 00 توسط الحلقه وأخذ يحدو لهم وهو يطوح بمذراته في الهواء 00

يا مدراتي ارويد ارويد
نقي القمح من السـويد
***
يا مدراتي دري وهاتي
دري دهـب لـوليـداتــي
***
يا مـدراتي هـب الريــح
خلي الحب سطيح سطيح
***

يا مدراتي دق هـــوان
نقي القمح من الزيوان

وصلت عدله قادمةً من الحاره وعلى رأسها سلة الطعام لوالدها وأبناء عمتها الأربعة 00 تحيط بها صبايا الحاره يتأبطن سلالهن 00 ويتضاحكن 00 رآها سلامه فطاش صوابه :

يامدراتي هـل هــــلالك
اجت الحلوه اللي عابالك
***
يا مدراتي إغمار إغمار
وش الحلوه فـج نهــــار
***
يا مدراتي هل الزيــن
قمري اللي عليه العين

تعثرت عدله في مشيتها مرتبكه 00 وحولها الصبايا يتغامزن 00

قالت مريم أرملة شهوان لسعدية حفيدة سكينه :

– نيالها عدله 00 أكيد الأرض مش سايعاها 00 الله يرحمك يا شهوان

مسحت بيدها الخشنة دمعة تحدرت على خدها المتغضن .

قالت سعديه :

– عدله بتستاهل 00 والله ما إلها أخت في كل غزه 00 بياض 00 وطول 00 وحلاوه 00 وخصر 00 وتم زي الخاتم 00 وإلا عينيها إللي برموا الفارس عن ظهر الفرس .

–74–

تأمله الشيخ أنس وهو ينشد وتنهد :

– لن يكف عن غنائه حتى نزوجه إياها 00 لو كان أكبر بعامين أو ثلاثه .

تبسم مبارك :

– عفش الرجال تمر 00 إسمع نصيحتي وزوجهما عند عودة الحجاج فيصير الفرح فرحين .

ثم تابع :

– شدما أوحشنا جوهر 00 لو كان إلى جانبي اليوم لما حسبت للتفكجي حساباً .

قال عبد الوهاب :

– لعل محمل الحج قد وصل إلى تبوك .

أكد الشيخ أنس بلهجة العارف :

– أظنهم تجاوزوا حالة عمار .

سكنت أهازيج الشباب فجأة وخيم صمت ثقيل 00 التفت الشيوخ حيث اتجهت أنظار شباب الحاره 00 كان التفكجي وحوله العسكر والعوانيه قد أشرفوا على الجرن 00

وقف شيخ الحاره يرحب بهم 00 يحف به الشيخ أنس ورضوان البطش وفرج السويسي والآخرون 00 وحده عبد الوهاب توارى خلف شجرة العوسج حيث كان يقف حصانه 00 وأخذ يتابع من بعيد ما يحدث .

– أهلاً وسهلاً 00 الله والنبي يحيي من لَفى .

تجاهل التفكجي ترحيبه 00 ودون أن يبادر أحداً بالسلام 00 تصفح بعينيه الشرهتين أكوام السنابل الثمانيه 00

-75-

لكز بطن فرسه فدارت دورة حول الجرن 00 ثم عاد اليهم وقد لفته سحابه من الغبار .

نظر بلؤم وخسه 00 ثم سأل :

– أين الغله يا شيخ الحاره ؟

أشار مبارك بيده إلى الأكوام الهزيله .

– الغله أمامك يا باشا .

- خيانات ؟ 00 فلاحين لصوص 00 سرقتم الغله ونقلتم حصة حظرتنا إلى بيوتكم في الليل 00 أهل حاره حرامي 00 وانت كمان حرامي شيخ تفاح 00 شيخ منصر 00 على الحاره أن تدفع لي ما دفعته في السنه الماضيه 00 ألف فردة قمح .

قال مبارك مستنكراً :

- ويموت أهلها جوعاً ؟!

- جهنمات قتي 00 ستكون أنت شيخ حراميه 00 مسئول عن توريد الغله إلى السرايا 00 هل فهمت ؟

قال شيخ الحاره :

- يا باشا الرحمه مطلوبه 00 نحن لم نسرق شيئاً 00 سنعطيك ما هو حقٌ لك .

- اسمع شيخ منصر 00 السلطان أعطى إيالة يافا وغزه والرمله ملكانية مدى الحياه لسيدي الوالي عبد الله باشا الجزار في عكا 00 عبد الله باشا أناب عنه متسلم في غزه حسين أغا زيد مجده 00 حسين أغا أوكل لحضرتنا إستلام حصة الوالي التي هي حصة السلطان 00 إنت شيخ حاره عاصي الله والسلطان ؟ .

كظم مبارك غيظه وقال بهدوء :

-76-

- السلطان أعطاك عشر المحصول 00 تراضينا على اعطائك الثمن 00 بيننا وبينك القسمه .

- قسمات يوك 00 لازم حارة تدفع مثل سنة فاتت 00 انت لازم تروح في حديد حتى تكون عبره لباقي الحارات .

أشار للعسكر والعوانيه :

- أولان 00 أُقبض على شيخ حاره أونطجي .

تقدم ثلاثه من الفرسان على ظهور خيلهم باتجاه مبارك فهب أهل الحاره بالمذاري والمناسيس لصدهم 00 حالوا بينهم وبين مبارك 00 توقف الفرسان في انتظار الأوامر 00

لكز التفكجي باشا فرسه نحو شيخ الحاره واستل كرباجه 00 طوح به في الهواء ليستقر على أكتاف مبارك 00 طوح ذراعه بالكرباج مرةً ثانية وهوى به على ظهر شيخ الحاره 00 حاول مبارك أن يمسك طرف الكرباج بيديه فلم يستطع 00 طوح التفكجي ذراعه بالكرباج مرةً ثالثة 00 مد عبدالوهاب يده إلى خرج حصانه 00 وأخرج غدارةً جاهزة للإطلاق ، أسند ماسورتها على ظهر الحصان وصوبها بدقة وصر على أسنانه :

– قتلت الخاتون 00 والآن تريد قتل مبارك أيها الكلب المسعور 00 لن يوقفك إلا الموت .

أطلق النار 00 سقط التفكجي عن ظهر فرسه مخضباً بدمه 00 رجال الحاره ولوا الأدبار 00 هاربين في كل اتجاه 00 حاولت سكينه أن توقفهم :

– البين ياخدكم 00 هذا قوتكم وقوت ولادكم 00 موتوا هنا 00 أحسن ماتموتوا من الجوع وتموتونا معاكم 00

–77–

لم يعيروها التفاتاً 00 أمسكت بتلابيبهم 00 الواحد بعد الآخر 00 لكنهم أفلتوا منها 00 آخر من أمسكت به كان ولدها عبد الله 00 دفعها عنه فوقعت على الأرض 00 هرعت إليها مريم وباقي نساء الحاره 00 أنهضنها وهي تكيل له السباب :

– ريتها إم الندل طلعت عاقر 00 والا بدال الندل جابت توم بنات .

فرسان التفكجي التفوا حوله في انتظار أوامره 00 فتح فمه ليتكلم 00 خرجت الدماء غزيرةً من بين شفتيه .

قال الأقطع :

– اصنعوا له محفه 00 واحملوه إلى السرايا 00

حملوه وانطلقوا به وهو بين الحياه والموت .

قالت سكينه للنساء اللواتي أذهلتهن المفاجأه :

– اللي بتروِّح من غير قوتها 00وقوت ولادها 00عايبه وستين (000)

أمسكت طرف عقصتها 00

– وحياة هاللي ما خانت ولا عابت ما يدرس هالفلحه غيري 00

ساقت بقرتها المشدوده إلى لوح الدراس وصعدت بها إلى كومة القش وهي تزغرد بعالي صوتها 00 تبعتها باقي نساء الحاره 00 دارت ألواح الدرس على أكوام القش الثمانيه 00 والنساء يزغردن والدموع في أعينهن .

انتهت الماشطه من تسريح شعر الجازيه وعقصه ، وانصرفت بهمة ونشاط لوضع النقوش على أصابعها .

قالت الماشطه :

– أصابع زي الكعكبان 00 ماشالله عليها بنتك يا ليلى 00 ما تغير فيها إشي من ليلة جلوتها 00 شعرها لسه للركبه 00 وبطنها ضامر 00 وعودها زي عود الزان 00 ما حدا بصدق إنها أُم لخمس أولاد .

قالت ليلى متبرمه بنفاق الماشطه :

– الحلو حلو الطبع .

احتجت الجازيه :

– مالو طبعي يا أمه 00 أنا عمري دست لك على طرف ؟؟

– دستي على طرف ناس كثير يا ام محمد .

– يا ستي غلطنا في البخاري 00 سامحينا 00

ثم قالت للماشطه أن تعيد النقش مرةً ثانيه لأن لونه مازال باهتاً 00 سمعوا دقاً عنيفاً على الباب 00 دخل الجبري قطروس شيخ الحاره الذي رباه جوهر في وادي الزيت بعد وفاة والديه 00 قال وهو يلهث :

– سيدي وهبه طخ التفكجي وهج .

نهضت ليلى بنت سالم مشدوهةً وهزته من أكتافه :

– ومبارك 00 سيدك مبارك يا مشمط .

– سيدي مبارك وباقي الرجال هربوا للإختباء من العسكر .

-80-

حاولت الجازيه النهوض فلم تستطع 00 أنهضتها الماشطه بصعوبه 00 تساندت على الجدار 00 أمرته بأن يجمع أولادها من الحاره 00 وضعتهم في الغرفة وأغلقت عليهم 00 إذاً فكل ما كانت تطمئن إليه

في حياتها قد تصدع 00 لأول مرة يغادرها إحساسها بالأمان 00 ويداخلها فزعٌ رهيب .
همت بأن تطلب من الجبري أن يحملها وأولادها إلى وادي الزيت 00 لكنها تذكرت أن جوهر لم يعد هناك 00 وأن الوادي لم يعد مكاناً آمناً منذ رحل جوهر 00 صارت تعدو في الفناء جيئةً وذهاباً والنار في أذيالها :

– البين صابك يا ام محمد 00 لم يعد لك ظهرٌ تحتمين به 00

استمرت على ذلك الليل بطوله منتظرةً عودة والدها مبارك 00 في الصباح هدها التعب 00 أغفت على فراشها لتستيقظ على أصوات فرسان القبيقول والعوانيه وهم يحطمون أبواب الدور ويقتحمونها00
وضع الجبري سلماً على الحائط واصعدهم إلى السطح ثم صعد وسحب السلم ومدده إلى جواره 00 انبطحت هي وأولادها وحبسوا أنفاسهم 00 اقتحم العسكر الدار 00 التصق الأولاد بها وقد ملأهم الرعب 00 رأى محمد ابنها الكبير السباهي الأقطع يحمل العباءه التي أهداها له جوهر 00 انزلق عن السطح قبل أن تستطيع منعه 00 عدا وراء السباهي وهو يصرخ :

– دعها هذه عباءة جدي جوهر .

رفسه الأقطع فسقط على ظهره وارتطم رأسه بالجدار 00 أغمى عليه .
نظر الأقطع إلى السطح فرأى الجازية 00 صاح بأعلى صوته :

– سأصوم عن النساء أربعين يوماً حداداً على التفكجي 00 وسأفطر بعد ذلك على إمرأة شعرها إلى الخلخال .
غادر البيت بعساكره 00 هبطت الجازية إلى حيث ولدها جاهدة في إيقاظه 00 حين استيقظ من إغمائه نظرت حواليها :

– حطموا البيت وأخذوا ما حلا لهم 00 حسبي الله ونعم الوكيل 00
ذهب الجبري يتسقط أنباء سيده مبارك ثم عاد في المساء وعلى وجهه خيبة أمل كبيره وألقى بالنبأ الذي قصم ظهر الجازيه وأمها :
– قبضوا على شيخ الحاره وساقوه إلى السجن .
إذاً فوالدها سبع الرجال أضحى سجيناً 00 وزوجها لا يعلم بمكانه إلا الله 00 أولادها الثلاثه وابنتاها أصبحوا بلا عائل يعولهم .
قالت أمها :
– لو كان جوهر حاضراً 00 لما تجرأ الباشا أن يبيبح الحاره لعسكره .
ردت الجازيه وهي تلطم خديها :
– أنا التي شردتُه وطردتُه طرد الكلاب 00 وأنا التي سأعيده 00 صدقيني يا أماه أن جوهر عائد .
ركعت على ركبتيها ومدت يداً ضارعةً نحو الشرق وصرخت 00 كأن جوهر يسمعها :
– أنا في عرضك يا جوهر 00 حلفتك برحمة يونس 00
وانهارت على الأرض 00 فاقدة الوعي .

***

طاف سلامه بكل الحارات 00 ينشر خبر سكينه وباقي نساء الحاره 00 اللواتي اعتصمن في الجرن 00 يطلب لهن النجده ويثير النخوه في صدورالناس .

–82–

– باطل عليكم 00 نسوان الحاره وحدهم 00 بكره العسكر اللى نهبوا بيوتنا وبيوتكم بلحقوا النسوان على الجرن 00 عرضنا من عرضكم يا زلام 00 يا أهل النخوة والمراجل 00 هبت باقي الحارات لنجدة سكينه 00

تسلحوا بالفؤوس والعصي والخناجر 00 حملوا زعترهم وبصلهم وخبزهم 00 ليتقاسموه مع نساء الحاره .

حين لفى سلامه مع طلائع الفزيعه وهو يحمل سيفه 00 زغردت عدله

متقلدٍ بالسيـــــف باشــوشح لك وبانــدهلك
اقطع خشوم اعداك ورد الحيف عن أهلك
وادهس على الموت واتمخطر على مهلك

زغردت النساء القادمات مع الفزيعه 00 فردت عليهن صاحبات سكينه بالزغاريد والدموع تملأ أعينهن .

في غضون أيام قليله 00 كانت ألواح الدرس قد هرست رءوس السنابل الناشفه 00 وفعلت السكاكين فعلها في اخراج حبات القمح من مكامنها خلف السّفير .

تشابكت مئات المناسيس والمذاري في الهواء تنثر غلالةً من التبن والقصل والغبار كأنها قوس قزح يمتد بعرض السهل كله .

حبات القمح كانت تتساقط كالمطر على رءوسهم وثيابهم وتستقر أكواماً تحت أقدامهم 00 اغترفت سكينة ملء كفيها قمحاً 00 تأملته بعينيها المكحلتين بالغبار :

– هدا خبزكم 00 وخبز اولادكم طول السنه 00 إللي بقرِّب عليه 00 كلوه بسنانكم ولو كان السلطان 00

-83-

لم تتوقف الحركه إلا بعد أن استقرت الغلة في الآبار والبواطي والحراديس 00 وامتلأت البوايك بالتبن والقصل 00

باقي الحارات حذت حذو حارة التفاح 00 جمعت قمحها وشعيرها وعدسها وفولها وسمسمها دون أن تحسب حساب الباشا وزبانيته .

مشايخ الحارات أبلغوا الباشا أنهم غير مسئولين عن سلامة عساكره إذا دخلوا الحارات 00 وأن عليهم أن يتقوا غضب الأهالي الذين نهبت بيوتهم .

العسكر والعوانيه الذين نهبوا الحارات بعد قتل التفكجي 00 ما عادوا يجرؤون على مفارقة السرايا خوفاً من غضب الناس 00 حسين باشا أغا 00 المتسلم 00 خشي مغبة العصيان والشغب 00 نقل مبارك في الليل إلى سجن عكا 00 وطلب التعزيزات من الوالي 00 ثم استدعى قاضي غزه وقال له بغطرسه :

– إذا لم تسلموني قاتل التفكجي وحصة السرايا كاملةً في الغله فسوف أعطي غزة يغما[1] للبدو شهراً كاملاً .

أجابه القاضي :

– ما أظن قاتل التفكجي بقي في غزه 00 لعله الآن في بر مصر 00 اطلبوه من صديقكم الحاج محمد علي 00 أما عن الغله 00 فلو أنكم أطلقتم سراح مبارك وباقي الرجال لوصلنا إلى حلٍ معهم 00 الناس اليوم ملهاش كبير والواحد محتار يحكي مع مين .

أدرك الباشا أن القاضي تجاهل تهديده فأعاد الكره 00

1. اليغما : غنيمة الحرب .

– إذاً نبيح غزة للبدو 00 وجربوا اليغما .

– " اليغما " عملٌ شنيع لا يقره دين ولا منطق .

– هادي أوامر من محروسة عكا .

– إذاً أذهب إلى الوالي لاسترضائه .

رد الباشا ساخراً :

– طريق السلامه قاضي أفندي .

انصرف القاضي والهم يثقل قلبه 00 شد الرحال إلى عكا تاركاً المدينة تغلي وقد خيمت عليها سحابةٌ من الخوف والرعب .

كانوا يتذاكرون هجمات البدو السابقه 00 والتنكيل الذي حل بهم فيما مضى 00 لكن رأيهم استقر على التصدي دفاعاً عن لقمة عيشهم وأقوات أطفالهم 00 أغلقوا مداخل الحارات إلا من فتحة لايدخلها الرجل إلا منحنياً " خوخه " أقاموا المتاريس 00 حصنوا سطوح المنازل وكوموا عليها الحجاره والمقاليع 00 تناوبوا السهر والحراسه 00 وطنوا النفس على أن يكون قتالاً حتى الموت .

(12)

صرت البوابه الصدئه 00 فتح الجحيم شدقه لابتلاع مبارك 00 دفعه الحراس بخشونه إلى الداخل 00 داهمت أنفه رائحة العفونه التي تتصاعد من القاع مختلطة بروائح الجراح النتنه التي طال عليها الزمن 00 سمع أنيناً وصرخات مبحوحه أشبه بالعواء .

قال له الحارس وهو يقفل الباب خلفه بالرتاج :

– هذا قبو العصاه الذين يحاربون الله والسلطان 00 لدي أوامر بتقييدك 00 ولكن ما حيلتي 00 القيود نفذت كلها .

قال الحارس الآخر :

– اقرأ الفاتحه على روحك أيها الشقي 00 ما دخل هذا المكان أحد وخرج حياً 00

سمع وقع خطى الحراس يبتعد 00 مد راحتيه يتحسس طريقه ويتعرف على المكان 00 لابد أنه في الدهليز المفضي إلى قبو السجن .

تلمس بكفيه الجدران 00 كم هي كبيرة وقاسيه حجارة هذه القلعه 00 وضع أذنه على الحائط 00 خيل إليه أنه يسمع هدير البحر 00 سمع بوابات تفتح وتقفل فأيقن أنهم يوزعون باقي المساجين على أقبية السجن 00 توغل حتى وصل القبو 00 تعودت عيناه على الظلام 00 استطاع أن يميز السجناء مشبوحين إلى الجدران بالسلاسل .

– السلام عليكم .

سكت الأنين وخيم صمت القبور 00 التفتوا إليه يتأملونه دون أن يردوا عليه السلام 00 قال أحدهم :

– ردوا السلام يا غجر .

عاد الأنين كأنه حشرجة الموتى .

– أنا مبارك ابن رمضان الهواشمه 00 شيخ حارة التفاح في غزه .

قال الرجل :

– وأنا الهواري قائد التمرد في قلعة سانور 00 وهؤلاء السته مشايخ الحارات في نابلس 00 لقد كان الجزار عادلاً معك 00 فوضعك مع أندادك يا شيخ التفاح 00 تنهد جاره وقال :

– نيالكو يا للي على الدنيا مقيمين .

– هذا جاري عبدالهادي 00 يعدد علينا كالنواحه الشاطره 00 وأحياناً يتحفنا بالغناء 00 اشتد أنين الرجل في آخر القبو 00 توجه مبارك نحوه وقبل أن يصله صمت فجأه 00 مد مبارك راحته ولمسه برفق

– كيف حالك يا أخي ؟

تدلى رأسه على صدره .

قال الهواري :

– لقد مات 00 وإنني أشهد أنه أوصى لك بكل ثروته 00 الخلخال والأساور والطوق الجميل الذي يحيط بالرقبه 00 ما جابك من الغرب إلا نصيبك .

أغلق مبارك عيني الميت وذهب يقعي إلى جوار الجدار 00 هذه نهاية الحلم الذي حلمته يا مبارك 00 " الحريه والعدل " .

ثلاثون عاماً انقضت على اندحار الفرنسيين 00 كنا نستبدل فيها حاكماً ظالماً 00 بحاكم أكثر ظلماً 00 وكلما خرجت أمة لعنت أختها 00 الله يا مبارك 00 طلبت تمام العدل 00 فوقعت في تمام الظلم 00 وطلبت الحرية 00 فافضت بك الطريق إلى سجن عكا 00

–87–

كان مبارك متعباً مهدوداً من السفر الطويل 00 مدد جسمه على الأرض الرطبه وأغمض عينيه 00 سرقته إغفاءه 00 رأى والده

الشيخ رمضان الهواشمه بثيابه البيضاء النظيفه وعمامته الناصعه 00 كان وجهه يطفح بشراً 00 انحنى عليه وسأله :

– كيف تضعف وقد هزمت نابليون ؟

هز يونس سبابته في وجه مبارك محذراً وعيناه تقدحان شرراً :

– إيَّاك .

تدافع أولاد الجازيه في باحة الدار 00 دخلت خلفهم الجازية 00 حسرت الغطاراس 00 فتهدل شعرها الطويل حتى الركبه 00

– لماذا تتصرون جوهر ومرجانه عليَّ 00 كأنني لست إبنتكم ؟!

أوغل عبدالوهاب على صهوة حصانه يُخيل في وادي الزيت 00 تابعه جوهر بأنظاره حتى اختفى 00 وهمس في أذن مبارك (أي فارس صنديد 00 أصبح عبدالوهاب 00 لو كان يونس حياً لأسعده ذلك) .

دخل شهوان وفرج السويسي ورضوان البطش وقد شكلوا أذيال قنابيزهم 00 رفضوا الجلوس 00 شربوا قهوتهم واقفين 00 قال رضوان :

– سالم إبن عمك وشى بك عند الفرنسيين وسوف يقودهم غداً إلى وادي الزيت 00 الشباب يصرون على قتله في بيته قبل طلوع الفجر 00 وأنا أرى أن نستضيفه وأصحابه الفرنسيين في كمائن محكمه على طول الطريق .

تنهدت زوجته ليلى بنت سالم :

– لماذا تقلقون عظام الموتى 00 أبي أخذه الطاعون 00

أشرق وجه شيخه العارف بالله تاج الدين الخروبي 00 وضع تاج الدين

يده على جبين مبارك وقرأ : **بسم الله الرحمن الرحيم** ۞ يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل 00 فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأتي بها الله 00 إن الله لطيف خبير 00 يا بني اقم الصلاه وامر

بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور [1] ☯ **صدق الله العظيم .**

أحس بالسكينه تغمر قلبه 00 هدأت روحه بين جنبيه 00 وغط في النوم .

في الصباح استيقظ على ركل الحراس وشتائمهم 00 فكوا القيود عن الميت وحملوه إلى الخارج سحبوا مبارك ليحل مكانه 00 أحكموا الأصفاد على كفيه وقدميه وعنقه وخرجوا يسبون ويلعنون وقد خنقتهم الرائحه 00 قال الهواري وهو يتأمل مبارك بعد أن استقر في قيوده :

– ها أنت تستقر على صهوة جوادك 00 بعد أن كنت بالأمس راجلاً .

ثم نادى جاره ساخراً :

– هل تريد شيئاً من هذا الخيال قبل أن يغادرنا في طريقه إلى غزه 00

أطلق عبدالهادي عقيرته بالغناء

يا راكب الحمــرا قناطيــر [2]
سـلملي على أحبابــي قناطير [3]
بنولي القيد في رجلي قناطير [4]
وروحي طير بيرفرف عالحباب
يالال يالال يالال

1. الآيات من سورة لقمان

2. يا راكب الفرس الحمراء القانيه 00 أسألك أن تطير

3. تسلم لي على الأحباب وزن قناطير من السلام

4. بنوا القيود في قدمي على شكل القناطر التي تعلو الأقواس في المعمار الشرقي

انتهت زوجة مصطفى الكاشف من صلاة الفجر 00 سمعته يفتح الباب .

تنحنح كعادته قبل أن يخطو إلى الفناء :

– دستور .

حين صار على باب الغرفة ألقى عليها السلام 00 تفقد بنظرة سريعه أولاده النائمين في الفراش 00 ولده العز 00 الذي سماه تيمناً بقاهر التاتار 00 شيخ الإسلام العز بن عبدالسلام 00 وولده الفضل وابنته اسماء .

جلس إلى جوارها 00 ثم سأل :

– كيف هم ؟

– بخير من الله 00 ما دمت بخير .

– وأَنْتِ ؟

سكتت 00 وأطرقت برأسها إلى الأرض .

– أما زال عمي غاضباً عليَّ لتبديد ثروة أبي 00 وإنفاق نصيبي من أرباح المصبنة كل عام على زبائني من فقراء البدو الذين يأخذون البضاعة ويعجزون عن دفع ثمنها 00 ؟!

– إن أبي يحبك 00 وهو يبغي لك الخير 00 ويريدك أن تستمتع بما أفاء الله عليك 00 ما لك ولهؤلاء البدو تضيع فيهم وقتك ومالك 00 ألسنا أولى بك يا مصطفى 00 لقد شب الأولاد عن الطوق وهم بأشد الحاجة إلى صحبتك 00 إنهم يفتقدونك كثيراً وأنت تغيب عنهم بالشهر والشهرين .

– أعلم يا عائشه 00 ولكن هل يتركنا الحكام الظلمه لكي ننعم بوقتنا وبما أفاء الله علينا من الخير 00 وهب أنهم تركونا 00 فهل نسكت على ظلمهم للناس من حولنا 00 إن الظلم وباءٌ مُعدٍ 00 كالسُل 00 والجرب

00 إذا لم يصطدم بما يوقفه 00 يسري سريان النار في الهشيم 00 لا يدع في الأرض أخضراً ولا يابساً 00 لقد جاء الأسلام بالعدل 00 وظل العدل هو القاعده المرعيه 00 فإذا حدث ووقع الظلم بأحد المسلمين 00 تنادى الآخرون لنصرة المظلوم وقتال الظالم 00 حتى يفئ إلى أمر الله 00 ودفع الله الناس بعضهم ببعض 00 ثم أنهم تهاونوا في ذلك 00 وألهاهم التكاثر 00 طلب كل منهم النجاة لنفسه فقط 00 دون أن يكترث بما يدور حوله 00 وشيئاً فشيئاً صار الظلم هو القاعده 00 فعمَّ وطمَّ 00 حتى صرنا كما قال شيخنا تاج الدين رحمه الله : " نتظالم في البيت والسوق والبيدر بأضعاف ما يظلمنا العتاة من الحكام " .

صار العدل غريباً منبوذاً 00 لا ناصر له ولا مجير 00 لقد طلب منا تاج الدين أن نسكت عندما سجنه أحمد باشا الجزار بحجة أن الفرنسيين ما زالوا في بر مصر 00 والإنجليز على سواحل الشام 00 فماذا كانت النتيجه ؟؟ لم يقنع الجزار بسجن تاج الدين وحده 00 امتدت يده إلينا نحن تلاميذ تاج الدين ومريديه .

أطاح بنا واحداً واحداً 00 حتى اجتمع منا في سجن عكا إثنان وثلاثون سجيناً 00 لم يغادر السجن منهم أحدٌ حياً سواي 00 دفع أبوك لحاييم فارحي واشترى حياة ابن أخيه 00 فهل أسعدني بذلك 00 أم حملني العار 00 إنني والله لأخجل من بقائي حياً بعد أن رُزق إخواني الشهادة 00 خامرني شعور بالضعة والهوان والعجز 00 ردحاً طويلاً

−91−

حتى كاد يقتلني 00 ثم إن اللـه نوَّر بصيرتي 00 ذكرت قوله تعالى : " إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم " 00 فقدرت أن حياتي انتهت داخل السجن 00 كما انتهت حياة الآخرين 00 وأن ما تلى ذلك كان

بلاءً وامتحاناً من الله 00 فسألت الله أن يثبتني على الإيمان به 00 والإنتصار له .

– وما دخل البدو في هذا كله ؟

– البدو هم الأداه التي يستخدمها الحكام في إذلال المدن وقهرها 00 وأنا أحاول أن أجرد الحكام من هذا السلاح أولاً 00 ثم أصوبه إلى صدورهم بعد ذلك .

– بالعطارة 00 والزيت 00 والصابون ؟؟

– العطارة 00 والزيت 00 والصابون 00 والسكر 00 والقهوه 00 هذه هي المدخل إليهم 00 إنها السبب والذريعه لكي أدور بين مضاربهم وأتحدث إلى كبارهم وصغارهم 00 فإذا جاء موعد الصلاة تحولت من تاجر خطار 00 إلى إمام ومحدث وشارح لكتاب الله وحديث رسوله 00 لا أطلب منهم على ذلك أجراً إلا المودة 00 هكذا أتدرج بهم حتى أنال ثقتهم وحبهم في الله 00 ومن ثم حشدهم للجهاد في سبيله

نظرت إليه طويلاً ثم أطرقت برأسها :

– لماذا تزوجتني ؟

فاجأه السؤال :

– خرجتُ من السجن مريضاً مثخناً بالجراح من آثار القيود 00 فرأيتك قد كبرت في غيبتي وصرت فتاة جميله عاقله 00 تجيد العناية بالمرضى 00 وتداوي جراح الروح والجسد 00 أحببتك يا عائشه واخترتك شريكة عمرٍ ورفيقة دربٍ 00

–92–

وضع يده على كتفها برفق :

– ما بالك يا ابنة عمي 00 هل بدأت تضعفين 00 لعلني حملتك مالا يطاق 00

تركها ورفع يديه إلى السماء :

– اللهم أعطيت عائشة أحمالاً ثقيله 00 فأعطها أكتافاً قويه .

ضحكت عائشه واقتادته إلى الحمام 00 اغتسل 00 وبدل ثيابه .

– أحس بالجوع 00 ما الذي طبخته اليوم ؟

– حرق أصبع 00 ولم يبق منه شئ .

قامت إلى المرجونه أحضرت رغيفاً 00 وضعت أمامه زبدية مليئه بالزيتون 00 تناول طعامه 00 وشرب 00 ثم تمدد في الفراش فارداً ذراعه 00 توسدت عائشه ذراعه 00 طواها بذراعه الأخرى 00 وأسبل عليهما الغطاء .

(14)

لم يكن نظمي بيك يتصور أن أحلامه ستنتهي هذه النهايه 00 عاد شريكه قاسم أغا من دمشق صفر اليدين 00 الوالي عبدالرءوف باشا أبطل الصليان 00 هكذا بكل سهوله 00

نزلت عساكره إلى حارات دمشق 00 لإحصاء الدكاكين وأرباب الصنائع والحرفيين لكي يوزعوا عليهم الضريبة الجديده 00 فجوبهوا بثورة لم يسبق لها مثيل 00 سالت الدماء في الشوارع 00 سقط العديد من القتلى 00 صارت البلاد على شفا العصيان 00 فما كان من الوالي إلا أن لجأ إلى أسهل الحلول 00 أرسل منادياً في المدينة أنه أبطل الصليان .

نزع فتيل الثورة من قلوب الناس لتشتعل في قلب قاسم أغا الذي وضع ثوبه في أسنانه ولم يتوقف إلا في اسطنبول .

قرر حزقيال وشقيقه سلمون أن يُخيِّرا السلطان 00 إما أن يعيد المال إلى أصحابه 00 أو يعزل عبد الرءوف باشا ويعين مكانه من يستطيع القيام بمهامه 00 وهكذا تم تعيين محمد سليم باشا قاهر الانكشاريه والياً جديداً على دمشق 00 ومضى في ركابه قاسم أغا وهو يحلم باسترداد أمواله 00 نام نظمي أفندي على حرير الوعود التي قطعها له سليم باشا 00

* * *

-94-

بعد ليلة أنس قضاها نظمي بيك مع جوزال في بيت القهرمانه 00 عاد إلى منزله فوجد رسولاً يدعوه إلى دكان السقا أميني لمقابلة ولده سليم أغا العائد من دمشق .

هرع إلى دكان صديقه السقا أميني فوجد الوجوم يخيم على الحاضرين 00 ما أن ألقى عليهم السلام حتى هب سليم أغا يعانقه والدموع في عينيه .

– البقيه في حياتك من جهة قاسم أغا .

هزه بعنف :

– ماذا تقول ؟!

– المسكين قطعوه أربع شقف .

– من الذي يجرؤ على ذلك 00 وأين كان الباشا والحكومه

– الباشا تعيش انت .

– والحكومة ؟

– بعد أن قتلوا الوالي محمد سليم باشا ألحقوا به الكخيا 00 والسلحدار 00 والخزندار 00 والمهردار 00 وخال الباشا ولم ينج أحد

– من الذي قتلهم ؟

– الأهالي اتزربنت 00 ودبت الفوضى وماعاد حدا يلايمها 00

– والصليان ؟!

– كان الباشا قد جمع أعيان البلد وأعلمهم أنه لابد من إنفاذ أوامر الدوله 00 وتحصيل الصليان 00 وأمرهم بالإجتماع في بيت مفتي أفندي لتسجيل الحارات 00 وبدأت الكتابه فعلاً نهار الخميس 00 كتبنا حارة الميدان 00 وباب السريجه 00 والقنوات 00 ويوم الجمعه وصلنا في الكتابه إلى حارة العماره 00 ولكن حارة العماره رفضت الكتابه

قبضاي الحاره عرابي الشوملي 00 حرض الناس علينا 00 وحلف لو طالك يطعم لحمك للكلاب 00 ضربونا وأشهروا السلاح في وجه العسكر 00 ثم امتد الشغب إلى العقيبه والصالحيه 00 فأمر الباشا

عساكره بإحتلال العماره ، ولكن أهل العماره امطروهم بالرصاص 00 ولم يصبح الصباح إلا والثوره قد عمت دمشق كلها 00 أمر سليم باشا بضرب المدافع من القلعه 00 مما زاد في غضب الأهالي الذين اجتاحوا سرايا الوالي ونهبوا كل ما وقع بأيديهم 00 حتى كلار الحج 00 والمحمل الشريف 00 قسموه قطعاً وحملوه للبركة .

بعد يومين من رمي المدافع لم يعد في دمشق ما يستحق الرماية 00 إذا وقف الإنسان عند أول سوق الجديد بشوف المرجة 00 بعد ذلك هاجت الناس واقتحمت القلعة وقتلوا كل من فيها 00 مسكين سليم باشا لحقتو النار 00 احترقت ذقنه وشواربه وتشلوط كل بدنه ولا عاد ينعرف شكله 00 الحكم الآن في إيد أولاد البلد 00 عينوا علي أغا عرمان وأبو خليل الدقاق للقيام بعمل الوالي ونصّبوا خليل أغا وردة في منصب التفكجي باشا 00 وربطوا البلد على قدر الكيف 00 وبعدما كانت جهنم صارت أمان وطمان .

صاح نظمي بيك بهلع :

– والصليان ؟!

– أُحمد ربك أخي إللي ما كنت هناك 00 قاسم أغا قطعوه أربع شقف بتلتين الصليان 00 إنت بطلعلك يقطعوك شقفتين بالتلت الباقي 00 العوض بسلامتك .

– والخواجه روفائيل فارحي ؟؟

–96–

– الخواجا روفائيل فارحي أخو حاييم فارحي إللي وعدك يمشي الصليان 00 إنضب في حارة اليهود وما عاد يظهر 00 عين على الحارة مائة وخمسين حارس 00 وكل يوم بدبح لهم ثلاث رءوس غنم وثلاث حلل رز ما عدا التنبك والنقل والفواكه والعرق والنبيذ 00

شئ لايعد ولا يحصى 00 وكل يوم يحضر إلى عندو أغا من الأغوات إللي قادوا الهوجه وياخذ منو على سبيل المحبه مبلغ لا يستهان به

ضرب نظمي كفاً بكف :

– هكذا إذاً 00 السلطان ابن السلطان نصب علينا 00 ولهف أموالنا متل أي حرامي 00 قاطع طريق 00 هذا مش سلطان 00 هذا كوجوك علي 00 هيك وهيك للسلطان وإللي سلطنو 00

انتابته هستيريا حاده :

– السلطان ياخد مصارينا ويوكل فينا البزونكيه أهل الشام 00 التيمورلنك 00 البابا حسن 00 إخوات (000) .

اشتدت النوبه عليه حتى لم يعد أحد يميز أقواله 00 غطى الزبد شفتيه أخذ يرتعد قائماً قاعداً 00 حتى أدركه العياء 00 حملوه إلى عربته00

حين استيقظ في اليوم التالي وجد نفسه في فراشه 00 ومع أن جسده كان مطحوناً من السهر والهذيان 00 إلا أنه مضى إلى بيت حزقيال عسى أن يعوضه بجزءٍ من المال الذي ضاع منه 00 " نُص العمى ولا العمى كله 00 ألف رحمة عليك يا قاسم أغا " 00 أراد أن يبكي شريكه ولكنه لم يجد دمعةً واحدةً تسعفه ، لابد أن احساسه قد تبلد منذ زمن بعيد .

عند وصوله إلى قصر حزقيال فوجئ بزحام كبير على بوابات القصر 00 عربات كثيره ورجالٌ ونساءٌ بشارات الحداد 00 تشاءم

–97–

وازدادت هواجسه 00 الدنيا تقلب له ظهر المجن 00 لم يعد بينه وبين الجنون سوى شعره 00 المال معادل الروح 00 هاهو يفقد كل ماله دفعةً واحدةً 00 المال الذي جمعه من المتاجره بالتيمارات والوظائف 00 ومن بيع نفسه لكل من هب ودب 00 شق طريقه بصعوبة إلى داخل القاعه .

حين رآه سلمون داخلاً قال لحزقيال :

- إن لصاحبك فماً كبيراً وقد أمضى الليله في دكان السقا أميني 00 يشتم السلطان ورجال دولته 00 وسوف يفسد علاقتنا بالبادي شاه 00

أشار سلمون إلى عنقه بظاهر يده .

- عليك باسكاته

قاده حزقيال إلى غرفة المكتب وعلى وجهه علامات الحزن والكآبه

- البقيه في حياتك يا نظمي بيك

- هل تعزينني في قاسم أغا 00 بلغك النبأ إذاً ؟

- بل أعزيك في نسيبنا الخواجه كوهين 00 لقد فجعت الطائفه بوفاته 00 أنت تعلم مكانته في اسطنبول 00

- رحمة الله عليه 00 لقد كان ركناً ركيناً لنا جميعاً 00 لم يبخل علينا بنصح أو مشوره 00 أراد أن يسترسل 00 ولكن حزقيال وقف ماداً يده لوداعه وهو يغمغم

- لاتؤاخذنا يا نظمي بيك 00 نحن اليوم مشغولون بالعزاء كما ترى

- أعلم أن الوقت غير مناسب 00 ولكن الصليان

- سأوافيك الليله عند القهرمانه لنتدبر مسألة الصليان هذه .

- ولكنك لا تذهب عادة إلى ذلك المكان .

-98-

- إنما خلق ذلك المكان للتسرية عن المحزونين 00 ألا ترى ما نحن فيه من الحزن .

حاول نظمي النهوض لمصافحة حزقيال ولكن أقدامه لم تسعفه 00 هب كبير الخدم لمساعدته وقاده إلى عربته .

* * *

استقبلته القهرمانه بابتسامة عريضه .

– جوزال ذهبت إلى الحمام وسوف تعود الليله أنعم من الحرير .

أجلسته على الأريكه 00

هذه فرصتنا لنتحادث قليلاً 00 سأصنع لك بيدي فنجاناً من القهوه فإن حضورك المبكر هذا شرف عظيم لبيتنا 00

ناولته فنجان القهوه وذهبت لبعض شأنها 00 حين عادت كان نائماً على الأريكه 00 سلبته ساعته 00 وكيس نقوده 00 حاولت أن تنزع خاتمه فلم تستطع 00 تركته متبرمة 00 وهي تنادي على سائق عربته :

– احمله إلى العربه قبل أن يتقيأ على البساط 00 فالسُم سليماني .

حمله السائق وسأل :

– إلى أين يا سيدتي ؟؟

– إلى البوسفور 00 لقد أحب طوال عمره النساء الجميلات 00 وسيجد في القاع ستة آلاف من نساء الانكشاريه ينتظرنه بفارغ الصبر .

(15)

تململ ابراهيم باشا على المنصه في ميدان سباق الخيل بقاهرة المعز 00 كان قد سئم متابعة المتطوعين من الفرسان 00 وهم يستعرضون قدراتهم ومهاراتهم

عن يمينه جلس رئيس أركانه سليمان باشا الفرنساوي 00 على يساره مستشاره حنا البحري 00 خلفه قائد فرسان الهنادي يشرح له ما يدور أمامه ويجيب عن أسئلته حول المتطوعين .

تثاءب الباشا فأدرك الجميع أنه على وشك أن يغادر المكان .

انطلق فارسٌ على صهوة جواده 00 ما أن خلا له المضمار حتى مرق مثل السهم 00 واجه المنصه فوقف على ظهر الحصان منتصباً وقد فرد طوله تماماً 00 أدى التحيه للباشا 00 حبس الجميع أنفاسهم

قال الباشا :

– سوف يسقط حتماً 00 كيف يقف هكذا والحصان في أوج اندفاعه 00 لكنه لم يسقط 00 ظل ثابتاً إلى أن تجاوز الحصان المنصه 00 بعدها بثانية واحده اختفى الفارس 00 شهق الحاضرون بحثوا عنه على أرض المضمار فلم يجدوه 00 عادوا للتحديق في الحصان فاكتشفوا أن الفارس قد انبطح ملتصقاً بظهر جواده ويداه تقبضان على شعر معرفته الطويل 00 وقدماه تنغرسان في حزام المؤخره 00 ماأن اطمأنوا إلى وجوده هناك حتى اختفى ثانية 00

ليكتشفوا بعدها أنه صار في الجانب الأيمن من حصانه 00 إلا أنه لم يستقر هناك طويلاً وعاود الإختفاء .

قال ابراهيم باشا وهو يحدق في الحصان :

– لعله تبخر هذه المره 00 لكن الحصان ما زال تحت السيطره 00 آه انظروا هناك لقد التصق ببطن حصانه كالقراده 00 ثم التفت إلى سليمان الفرنساوي يغمز قناته :

– هل رأيت في فرنسا شيئاً كهذا على أيام صاحبك الامبراطور ؟

ابتسم سليمان الفرنساوي :

– ولا على أيام أي من اللويسات .

صفق الباشا وهو يأمر قائد فرسانه :

– إليَّ بالرجل .

اقتادوه إلى المنصه 00

– السلام على سيدي ابراهيم باشا سر عسكر العرب .

– وعليك السلام .

كان مربوع القامه 00 منتصب الهامة 00 ورغم هزاله الشديد مازال وجهه بهياً ومشرقاً 00 لم يزايله ثباته 00 ولافقد رباطة جأشه أمام الباشا الذي ترتعد لهيبته فرائص الشجعان .

– لا يبدو أنك مصري 00 أو بدوي 00 من أنت ؟

– أنا عربيٌ من غزه .

تابع الباشا وهو يتأمله بامعان .

– لا تبدو أيضاً كلص أو قاطع طريق 00

– أنا عبد الوهاب ابن يونس السبعاوي العنزي صاحب وادي الزيت .

-102-

همس حنا البحري في أذن الباشا :

– هذا قاتل التفكجي باشا وكيل متسلم غزه 00 الذي يطالبنا والي عكا بتسليمه .

قال ابرهيم باشا وقد تعكر مزاجه :

– أنت قاتلٌ إذن ؟؟

– كان رجلاً ظالماً استباح أهل حارتي وأذلهم 00 وحكم عليهم بالموت جوعاً 00 هل يرضيك هذا يا باشا ؟

– الظلم لا يرضيني 00 والقتل أيضاً لا يرضيني 00 ما يرضيني هو العدل 00

حك الباشا ذقنه وهو يفكر 00 ويقلب الأمر على وجوهه 00 ثم أشار إلى قائد فرسان الهنادي

– ضمه إلى فرسانك 00 وأنزله المنزلة التي يستحقها .

نزلت الكلمات على صدره برداً وسلاماً 00 ولكنه أحس بأنها الفيصل بين عالمين 00وأن تاريخاً جديداً قد بدأ 00 وأن ستاراً قد أسدل على ماضيه كله 00 داهمه شوق عارم لغزه 00 وحين غادر المنصة إلى حيث يتجمع فرسان الهنادي 00 انتحى جانباً وقد استولت عليه الهواجس 00

لو أنه لم يقتل التفكجي باشا لكان الآن في غزه مع مصطفى الكاشف وخاله مبارك وعمه جوهر 00 كم يفتقد غزه 00 أولاده 00 وزوجته 00 وكم يفتقد نافذةً تطل من أعلى عليين في حارة بني عامر على السواقي الخضراء المليئه بالزروع الوارفه 00 فمن نافذة الخاتون

-103-

كان يرى ساقية النخل أسفل التلة التي بني عليها قصر الخاتون 00 ومن خلفها ساقية الشيخ شعبان 00 ثم ساقية قلفان 00 ثم ساقية الشيخ نبك 00 حتى زقاق اعبيه 00 ومن الجهة الأخرى كان يرى بيوت

حارة التفاح ويميزها بيتاً بيتاً ابتداءاً من سطح الجامع الأيبكي حتى حارة العامودي على أطراف ساقية الرماد 00

أما داخل غرفة الخاتون فقد كان كل شئ يحمله إلى عوالم البهجة والمسره ويحلق به في بلاد السحر والعجائب 00 ويطلق العنان 00 لخيالاته المجنحه 00 ورغباته المكنونة 00 والأشواق الخبيئه في أعماق نفسه 00 ألوان الأغطية والستائر 00 النقوش المترفة على خشب الرياش الثمين 00 الطنافس التي أبدعت لكي تستند عليها الخاتون بمرفقها الغض وساعدها الطري كالملبن 00

كانت تروغ منه تاركةً أمامه الأبواب مفتوحةً 00 لم تردعه جيداً 00 ولم تقطع أسباب ما بينهما 00 كان يقف على ظهر حصانه ويتسلق شباكها ويجالسها اليوم بطوله 00 تعودت عليه 00 بمقدار ما تعود عليها 00 وجدت فيه ما افتقدته طويلاً في التفكجي باشا الذي لا يفيق من سكره 00

أرادته ولداً لها بادئ ذي بدء 00 ثم أخذ الأمر يلتبس عليها شيئاً فشيئاً 00 أما هو فلم يكن لديه التباس من أي نوع 00 كان قد اتخذ قراره منذ انحنت على سريره أول مره 00 نظراته الجريئه 00 وايماءاته ولمساته العارضه أحياناً 00 تسقطها في الحيره وتبلبل ذهنها الصافي المتوقد 00 كان يستدرجها إلى ما يريده منها 00 يمثل دور الإبن حتى ينطبق عليه تماماً 00 وحينما تظن أنه استسلم لأمومتها دون قيد أو شرط 00 ينقض عليها فجأةً 00 فيلتبس عليها الأمر وتحار هل

تصده فتفقده 00 وتضع نهايةً لعلاقتهما 00 أو تثنيه باللين والهوادة عما هو فيه .

ظل ذلك ديدن العلاقة بينهما إلى أن فاجأه النبأ المشئوم 00
وقطع نياط قلبه 00 التفكجي قتل الخاتون 00

(16)

أذن مؤذن القافلة لصلاة الصبح 00 فاصطف الحجاج خلف الإمام 00 وفجأة دوى الرصاص 00 سقط منهم من سقط يتخبط في دمه .

وضع بدويٌ سيفه على عنق جوهر وصرخ فيه بأعلى صوته :

– المال 00 أين المال ؟

دس جوهر يده تحت عباءته وفي أقل من الثانيه كانت سكينه تقطع حنجرة اللص 00 جرد سيفه ونهض ليجالد فتاك الصحراء 00 واحداً واحداً أو اثنين أو ثلاثه 00

كان العويل والصراخ يختلطان بقرقعة السيوف وصهيل الخيل وثغاء الإبل 00 اختلط الحابل بالنابل .

قائد المحمل الشامي أرسل يطلب النجده من المحمل المصري الذي يتأخر عنه ساعتين في المسير 00 ثم انصرف بمن معه من الفرسان لمواجهة قطاع الطرق الذين انقضوا على قافلته .

كانوا حفاة 00 عراة 00 هزال الأجسام 00 عيونهم غائرة في محاجرها كأنهم ذئابٌ أمضها الجوع 00 يقاتلون قتال اليائس 00 ليحصلوا على ما يسد رمقهم ورمق أولادهم .

قال أحدهم قبل أن يصرعه جوهر :

– الرحمه يا حج 00 إن لي سبعة أطفال

قال جوهر وهو يحتز عنقه :

– إنما أقتلك رحمة بهم 00

ثم التفت إلى مرجانه التى كانت ترتعد خلفه من الرعب :

- لم يتركوا لي خياراً آخر 00 إما أن أكون القاتل أو القتيل 00 أي حجٍ هذا 00 ثم

انصرف إلى علاج لص كان يقف على صدر أحد الحجاج ليبتز ماله 00 أطاح رأسه بضربة واحده من سيفه

قال مازحاً :

- وسيفي كان في الهيجا طبيباً
يداوي رأس من يشكو الصداعا
أنا العبد الذي خبرت عنه
وقد عاينتني فدع السماعا

سمعه قائد المحمل الشامي :

- عرفتك أنت عنترة العبسي 00

ثم أشار إلى جنوده ليلتفوا بجوهر ويفعلوا مثل فعله 00 مرت ساعة رهيبة قبل أن تطلع الشمس من وراء سلاسل الجبال 00 لمعت الدماء قانية على ثياب الإحرام البيضاء 00 ظل قرع السيوف على أشده حتى هدرت المدافع 00 كانت النجده المصريه قد وصلت وبدأت طلائعها القصف على الأطراف البعيده لساحة القتال 00 الحجاج انحازوا إلى مواقع المدافع المصرية 00 قطاع الطريق فروا بما يحملون من الغنائم تاركين قتلاهم وجرحاهم 00 دفن الحجاج القتلى بعد أن صلوا عليهم وانصرفوا إلى علاج المصابين .

اصطحب قائد المحمل الشامي جوهر إلى أمير الحج المصري ليعرفه به :

- هذا جوهر 00 رجل بمئة رجل .

-107-

تأمل أمير الحج المصري ضمادةً حديثه على كتف جوهر مخضبة بالدم

- لعلك بخير ؟

– جرحٌ بسيط في الكتف .

تأمل صدره العاري وما به من الجراح القديمة والندوب التي تركها الطعن والضرب وقال يداعبه :

– إن لك جسداً كالمنخل .

– إن هي إلا جراحٌ أصابتني في طاعة الله ومرضاته 00 والله ما حاربت حرباً تشين صاحبها .

ربت أمير الحج كتفه برفق :

– إن بدرت لك حاجةٌ نستطيع قضاءها فلا تتردد في طلبها 00

ثم انصرف عنه إلى غيره من الرجال الذين اصيبوا في الموقعه .

جلس جوهر في الظل يلتمس قسطاً من الراحة 00 كان الحجاج يقاومون شعور الفجيعة والإحباط الذي أصابهم ويتأسون عن كل عزيز فقدوه بالتلبية والدموع في عيونهم 00

لبيك اللهم لبيك 00إن الحمد 00والنعمة 00لك والملك 00 لا شريك لك

انصرف جوهر ومرجانه إلى التلبية بكل جوارحهما 00 فجأة انشقت الأرض عن محمد الجبري 00 وقف أمامهما صامتاً ذاهلاً لا ينبس 00 كان أشعث أغبر وعلى جبينه كدمةٌ كأنها ضربةُ سيف مثلم 00 كف جوهر عن التلبية وكذلك فعلت مرجانه 00 أخذتهما المفاجأة 00 وحين استوعبا حقيقة وجوده أمامهما 00 نهضت مرجانه كاللبوة الجريح تهزه من أكتافه وتصرخ :

– عبد الوهاب 00 هل وقع لولدي مكروه 00

أنشبت أظافرها في عنقه 00

– تكلم

أخيراً حرك الجبري شفتيه بصعوبة بالغه وهو ينقل لهما النبأ :

- سيدي وهبه طخ التفكجي 00 وهج على مصر .. وسيدي مبارك حبسوه في قلعة عكا 00 حسين أغا المتسلم سلم الواد للأقطع 00 الأقطع قال للفلاحين : " وادي الزيت دية التفكجي " .

حلت لحظات من الصمت 00 قبل أن تسأل مرجانه

- والجازيه 00 والأولاد ؟

تقدم الجبري إلى حيث يجلس جوهر

- الجازيه أرسلت لك هذه الصره 00

فك رباط الصره وألقى ما بها في حضن جوهر 00 كان شعر الجازيه كله 00 أسوداً فاحماً 00 يتماوج على ركبته 00 كما لو عادت طفلةً شقية تزاحم عبد الوهاب 00 أنشب أصابعه المعروقه في الغدائر المزجاة أمامه ورفعها إلى وجهه وانهار على الأرض 00 ينشج بكل خلجةٍ في جسمه وهو يهذي :

- لا 00 لا 00 الموت يسبق القضا 00 يا ام محمد .

(17)

وصل مولانا محمد سكيك قاضي غزه إلى عكا 00 مشعثاً مغبراً من وعثاء السفر 00

بات ليلةً في خان الشط 00 وحين استيقظ كان هدير البحر على أشده 00 فتح النافذة واستنشق الهواء المثقل برائحة الطحالب 00 خيل إليه أن الهواء مالحٌ يحمل طعم البحر ولزوجته 00 مد يده إلى افريز النافذه وتناول ابريق الماء 00 شرب حتى ارتوى 00 دخل عليه صبي الخان بزبدية البيض المقلي ورغيف الخبز 00 تناول افطاره ثم أخذ ملابسه في يده 00 وقصد الحمام في أول الزقاق المبلط 00 استحم وبدل ثيابه وأوصى صبي الحمام بغسل الملابس الوسخه 00 عرج على دكان حلاق في الزقاق ليكمل زينته استعداداً للقاء الوالي .

رفع الحلاق حزامه السليمي فوق بطنه المتكرش حتى استقر الحزام على صدره لقصر قامته 00 لم على جانبيه حافتي الصديري الحرير المطرز 00 عدَّل طربوشه البابوري الأحمر 00 واطمأن إلى موضع الزر الأسود الذي يتدلى من جانب الطربوش ثم شمر ذراعيه وهتف لصبيه :

– المروحه .

قفز الصبي برشاقة الغزال إلى حيث يتدلى حبلان مثبتان في ذراعي مروحتين معلقتين بسقف الدكان وبدأ في تحريكهما .

لاحظ القاضي أن الغلام بهي الطلعه 00 واسع العينين 00 نقي البشره 00 نظيف الهندام 00 وأن حركته أقرب إلى حركة فتاة غنوج .

-110-

نزع الحلاق عمامة مولانا القاضي باحترام بالغ ووضعها أمامه على جانب المائده 00 حيث رصت قوارير العطر وماء الورد 00 أمال كرسيه

إلى الخلف 00 ثبت طاسة من النحاس تحت رأس القاضي وبدأ يغسل فروة رأسه بالليفة والصابون .

تناول الموس وأخذ يمر به على حزام جلدي مثبت في ذراع الكرسي حتى أحده .

بدأ في حلاقة رأس القاضي 00 مع أول جرة من الموس أحس مولانا بالهواء البارد يداعب جلدة رأسه 00 فانتشى وأخذته الرغبة في الحديث والمسامره قال للحلاق :

– جئت أحمل إلى الوالي مظلمة من أهالي غزه 00 هل تظن الرحمة تعرف طريقها إلى قلبه ؟

– " عكا وِ خمه " وقد ازدادت وخامة منذ حكمها هذا الأحمق .

– صفه لي فإنني لم أقابله بعد .

– أسمر 00 نحيل 00 مجدور الوجه 00 أبح الصوت 00 قصير القامة 00 لو أخذته إلى سوق الرقيق فلن يشتريه أحد بنصف قرش .

– سمعت أنك حلاقه ؟

– كنت حلاق الولاة أيام الخواجا فارحي الذي أسند إليَّ هذه المهمه بعد أن توليت علاجه 00 حين فقأ الجزار عينه 00 وصمخ أذنه 00 وجدع أنفه .

أنهى الحلاق حلاقة الرأس وانصرف بهمة إلى حلاقة الشارب فكف القاضي عن الكلام وأطبق شفتيه تحت شفرة الموس فاستغلها الحلاق فرصة ليسترسل في الحديث 00

– حلقت لأحمد باشا الجزار 00 ثم لإسماعيل باشا الذي لم يهنأ بالولاية

-111-

ثم لسليمان الذي حكم خمسة عشر عاماً ثم لربيبه عبد الله 00 كان عبد الله يظهر الصلاح والتقوى في أول عهده ليصرف أنظار الناس عن

صغر سنه وقلة خبرته 00 تاركاً للخواجا فارحي ترتيب صفقة تعيينه مع السلطان لكنه بعد أن ثبته حاييم في منصب الوالي انصرف إلى معاقرة الخمر ومراقصة الجواري الذين يعج بهم قصره 00

ارتفعت الموس عن شفتي القاضي فتنهد حزنان أسفاً :

– إن المتسلمين لم يفعلوا شيئاً لإيقاف تعديات البدو على غزه بعد أن كان أبو نبوت قد أخلدهم للسكينه 00 أما اليوم فأكثر من ستة آلاف بدوي يسرحون ويمرحون دون أن يجرد عليهم عبدالله باشا جنوده 00 ينهبون ويسلبون منا أكثر من عشرة آلاف كيس سنوياً 00 والآن فعوضاً عن حمايتنا منهم 00 يهددنا المتسلم حسين أغا بإباحة غزه لهم شهراً كاملاً 00 أليست لك دالة على الوالي فقد سمعت أنك حلاقه 00 لعله استبدلك بحلاق آخر بعد قتله فارحي 00 وتشريده أعوانه ؟

– كلا يا سيدي بل ازدادت علاقتي به وثوقاً 00 كنت أورد له الغلمان الذين شغلوه عن جواريه 00 وأصبح لا يمل صحبتهم 00 إلى أن أدخلت عليه ذات يوم غلاماً مكدونياً 00 سلب لبه واحتل مكانتي عنده 00 فلم يعد يأبه بي أو يرسل في طلبي 00 قص الحلاق ذقن القاضي محافظاً على تدرجها من أعلى إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلى وحينما فرغ منها تناول علبةً 00 وأخذ منها قطنةً مستديره مثقلةً بالذرور 00

– هذا الأسبيداج مصنوع في البندقيه 00 ناعمٌ ومعطر 00

مر بالرور على وجنتي القاضي ورقبته ورأسه 00 لضم خيطاً أمسكه بكلتا راحتيه من جهه و بأسنانه من الوسط 00 ثم أخذ يزيل الشعر

-112-

الزائد في وجنتي مولانا 00 أخيراً أنجز عمله تماماً 00 أشار إلى صبيه :

– لؤلؤ سوف يكمل المهمه .

اختفى الحلاق وراء ساتر في آخر الدكان يراقب ما يجري وهو يمني نفسه بصفقة رابحه .

" من غير قاضي غزه يعرف قيمة هذا الغلام 00 لابد أنه سيدفع فيه أضعاف ثمنه "

ترك الغلام حبلي المروحه واتجه إلى الطاولة يتأود في مشيته 00 تناول زجاجة الورد 00 نضح بها رأس القاضي 00 وجبينه 00 ولحيته 00 وأخذ يدلك جلدة الرأس بأطراف أصابعه وهو يحاول الإلتصاق به 00

اكتشف مولانا حيلة الحلاق الوضيعه 00 قفز من كرسيه 00 تناول عمامته وألقى على الطاولة ببعض النقود وانصرف مسرعاً 00 لحق به الحلاق كأنه يريد الإعتذار عما بدر منه وهمس في أذنه :

– أقصر طريق إلى مولانا الوالي يمر بالطواشي رستم وهو اليوم في خان الجواري 00 فاهرع إليه وتدبر أمرك معه 00

قال القاضي وهو يعجل بالانصراف :

– بل أذهب إلى قاضي عكا 00 فيصطحبني إلى الوالي 00 قبل أن يهلك الناس .

استقبله قاضي عكا بحراره 00 أجلسه إلى جانبه على دكة القضاء 00 حينما إنتهى دور الخصماء المحتكمين للقاضي 00 صرف الحاجب من في مجلسه 00 إستدار إليه يسأله عن غزة وأحوالها 00

-113-

أجابه بأبيات حفظها من شعر الشيخ مصطفى الدمياطي :

يـا ويـح غـزه مـذ أهوت مرابعها
إلى الحضيض وقد ناحت سواجعها
كـانت معـاهدها للأنـس جـامعـة

من كل معنى سما والحسن جامعها
فأصبحت من سطى الأعراب خاوية
علــى العــروش مخيفـات بلاقعهــا
فقـل لعينـك تبـكي عنـدها أسفـــا
يحــق للعيــن أن تهمـي مـدامعهـــا
واستنجد الصبران ودعتها سحراً
فللنفـــوس جــوى ممـــن يـودعهــا

ترنح قاضي عكا ألماً 00 وأسفاً 00 وطيب خاطر ضيفه 00 ثم دعى بالطعام 00 أكلا وشربا00 توجها معاً إلى القلعة لملاقاة الوالي كانت المفاجأة المذهله 00 استقبلهما الوالي وبالغ في إكرامهما 00 ووعدهما بحماية غزة من هجمات البدو وتعديهم 00 بل أنه قبل الشفاعة في مبارك وأطلق سراحه والقاضيان في مجلسه 00 وقد حمَّل قاضي غزة رسالة إلى الأهالي 00 أمره بعدم فتحها وقراءتها إلا بعد أن يجمع في منزله أرباب التكلم 00 المفتي 00 والعلماء 00 والخطباء 00 والأئمة 00 ومشايخ الحارات 00 وكان أكثر ما أسعد مولانا القاضي وأطلق العنان لأحلامه 00 قول الوالي :

– مفتي أفندي في غزه 00 صار كبير السن 00 ضعيف الحركه ونحن بحاجة إلى رجل قوي موثوق مثلك شيخ محمد ليصبح مفتي الديار 00 إذا فالمكافأة بانتظاره ان نجح في مهمته 00 وهولابد ناجح بإذن الله00

(18)

افتقد فرسان الأقطع 00 قائدهم قبيل المغرب 00 كان كعادته قد أبصر واحده من نساء الوادي 00 أعجبته 00 فأمرهم باقتياد زوجها مكتفاً بالحبال إلى بيت يونس حيث يقيم هو وفرسانه .

حين وصل الزوج 00 أمرهم بفك وثاقه 00 وبخهم على فعلتهم الشنيعه ثم التفت للرجل .

– ما اسمك ؟

– صالح عطاالله .

– أنت رجلٌ طيب يا صالح 00 لقد قررت أن أجعلك من أصدقائي المقربين 00

دنا من الرجل وهمس في أذنه :

– إن لك زوجة جميله 00 وسوف أكون ضيفها الليله 00 أريد عشاءً دسماً 00 لا تنس أن تكثر من الشراب والفاكهه والنقل .

ثم صاح في فرسانه :

– لن أطيق فراق هذا الرجل بعد اليوم 00 أصبح صديقي فلا تدعوه يفارق الوادي حياً .

لم يرجع الأقطع تلك الليله 00 حسبوا أن المرأه قد بالغت في إكرامه حتى قرر قضاء الليل كله عندها.

في الصباح ذهبوا لتفقده لكنهم لم يبتعدوا كثيراً عن البيت 00 كان الأقطع قد عُلِّق عارياً على فرع الجميزه الكبيره 00 لسانه يتدلى إلى منتصف صدره 00 أسراب الذباب تطن حوله 00

-115-

تركوه على فرع الجميزه وولوا الأدبار إلى السرايا 00 يحملون إلى المتسلم حسين أغا 00 النذير بعودة جوهر .

كان جوهر قد أوصى أمير الحج المصري بمرجانه وخادمها " الجبري " 00 طلب منه أن يعطيه ذلولاً من هجن البريد 00 قال أمير الحج المصري بعد أن استمع لقصته :

– بل اثنين 00 تركب واحداً وتريح الآخر حتى تصل إلى مبتغاك .

انطلق لا يتلفت ولا يستريح إلا لماماً 00 حتى دخل الوادي .

كمن للأقطع في بيت صالح عطاالله 00 أكل الأقطع وأسرف في الشراب منتظراً أن تفرغ زوجة صالح من زينتها .

أخيراً نهر صالح زوجته :

– تقدمي يا امرأه فإن سيدي السباهي قد فرغ صبره .

دخل جوهر 00 لم يكن بيده السيف 00 كان بيده حبل قصير يلولب به ثم يمسحه بباطن كفه 00 رآه الأقطع فهرب الدم من عروقه انهار على قدمي جوهر

– أمان الله ياجوهر 00 أمان الله 00 أبوس رجلك

– قطعنا يدك التي امتدت إلى مال الفقراء 00 فمددت الأخرى إلى أعراضهم .

لف الحبل حول عنق الأقطع وضغط بقوة حتى خمدت أنفاسه 00 حملاه إلى الخارج .

أما صالح فقد انطلق فور خروجه من البيت مع نفرٍ من رجال الوادي الذين اختارهم جوهر ليحضروا الجازيه والأولاد من الحاره قبل طلوع الفجر .

-116-

في الأيام التاليه انشغل جوهر بتنظيم رجاله من أهل الوادي وتوزيع السلاح عليهم 00 سد جميع منافذ الوادي بالرجال والسلاح 00 وانتظر رد المتسلم حسين أغا على مقتل الأقطع 00 انتظاره لم يطل هذه المره 00 جاءه رضوان البطش وفرج السويسي ومحمد الجرو وسلامه أبو غوش بالنبأ الذي أقض مضجع غزه :

– البدو يزحفون على المدينه

أطرق جوهر قليلاً ريثما يستوعب ما سمع

– التياهه ؟

أكد فرج السويسي وهو يخط على الأرض بعودٍ في يده 00

– التياهه والترابين هذه المره

تابع رضوان البطش :

– إنهم يتدفقون من وادي غزه إلى أطراف حارة الزيتون 00 يتجمعون هناك 00 كل قبيلةٍ تحت رايتها 00 لقد استجابوا لدعوة حسين أغا متسلم غزه .

رد جوهر متحفزاً :

– هل يستبيحون المدينة والحارات ؟!

رفع بصره إلى الأفق 00 كانت طلائع أهل الحاره قد بدأت في الوصول إلى الوادي يحملون أطفالهم وحاجياتهم الضروريه .

سأل جوهر رجال الحاره :

– ما الذي عقدتم عليه عزمكم ؟

قال رضوان البطش :

– نضع النساء والأطفال في الوادي 00 ونذهب لقتال البدو حتى نفنى عن آخرنا .

-117-

رد جوهر :

– إذاً أذهب معكم 00

أوصى بعض رجاله بالنساء والأطفال 00 اصطحب الباقين معه وانطلق مع رجال الحارة إلى المدينة 00 حين وصلوا شرح لهم خطته :

– لن ينزل البدو إلى الحارات قبل أن يفرغوا من نهب السوق والقيسريه 00 فلنتربص بهم هناك 00 حين وصلوا السوق وجدوا عدداً من أبناء

الحارات الأخرى قد سبقهم 00 عملوا سوياً 00 حصنوا مداخل السوق 00 أغلقوا أبواب القيسريه من الخارج 00 شددوا الحراسه على الثغرات المؤديه إلى مداخل الخانات .

بدأ البدو في الظهور 00 وصلت ثُلة منهم إلى باب الدارون وأخذت تصعد إلى قصبة المدينه 00 ثم تبعها الآخرون 00 مرت خيولهم من منتصف السوق دون أن يلتفتوا إلى الدكاكين أو الماره أو الحراس 00 واصلوا سيرهم الحثيث حتى وقفوا بباب الدبويه 00 التفوا حول الدبويه محكمين عليها الطوق 00 تقدم قائدهم إلى البوابه 00 حسر اللثام عن وجهه ونادى بأعلى صوته :

– أنا مصطفى الكاشف 00 هل تنزل يا باشا أم أصعد إليك 00

أطل الباشا من نافذته في الدور الثاني على الجموع التي تحاصر الدبويه 00 كان المشهد أقرب إلى العرس 00 إذ سرعان ما سرى الخبر بين الناس 00 " البدو يحاصرون الدبويه مع مصطفى الكاشف ".

جاء أهل البلد يعلنون ولاءهم لمصطفى 00 وفرحتهم بحلفائهم الجدد 00 كانوا يتعانقون بدواً وفلاحين 00 وتكبيراتهم تشق عنان السماء 00 حراس الدبويه ألقوا سلاحهم وفروا على وجوههم .

-118-

خارت ركب الباشا 00 أدرك أن لا فائدة ترجى من المقاومه 00 نزل من الدبويه إلى الشارع 00 وقف ذليلاً حاسر الرأس أمام مصطفى الكاشف .

أشار مصطفى إلى رجاله :

– قيدوه بالحبال واحملوه إلى جميزة صالحه .

ثم قال للباشا :

- أظنك تعرف الطريق إلى عكا 00 اذهب وقل لسيدك أن الظلم مرتعه وخيم .

طال درس العصر في المسجد الأيبكي 00 أطنب الشيخ أنس مراد ابن مراد البتير الذي عاد من الأزهر الشريف بملء برديه علماً 00 في الحديث عن يوم القيامه 00 حتى ملأهم رعباً .

سأله مبارك عن اشراط قيام الساعه .

فقال :

من أشراطها 00 فتنة الدجال 00 وزحف يأجوج ومأجوج 00 وظهور الدابه .

سأل رضوان البطش ؟

– ومن هو الدجال ؟

– قال كعب الأحبار (الدجال رجل طويل عريض الصدر مطموس العين اليمنى 00 يدعي الربوبيه ومعه جبل من خبز وجبل من فاكهه 00 تضرب بين يديه أرباب الملاهي بالطبول والمعازف والعيدان والنايات فلا يسمعه أحد إلا تبعه إلا من عصمه الله) 00 أما عن امارات خروجه هبوب ريح مثل ريح قوم عاد 00 وفي زمن خروجه يترك الناس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر 00 ويلبسون الحرير ويتركون الصلوات ويتبعون الشهوات 00 ويقف العلماء بأبواب الملوك والسلاطين 00 يخرج الدجال من ناحية المشرق من قرية يقال لها " دسرا يادين ناحية هوازن أو أصفهان " 00 يخرج على حمار يتناول السحب بيده ويخوض البحر إلى كعبه 00 ويستظل في أذن حماره خلق عظيم 00 وفي أيام الدجال تنبت الأرض نباتاً كعهد آدم00

حيث يجتمع النفر على الرمانه الواحده فتشبعهم 00 يطوف الأرض شرقها وغربها حتى يدخل أرض بابل فيلقاه الخضر فيقول له : أنا رب العالمين 00 فيقول له الخضر كذبت 00 فيقتله الدجال 00 ويقول لو

كان لهذا إله كما يدعي لأحياه 00 فيحيي الله الخضر لوقته 00 ثم تطلع الشمس يوماً حمراء 00 ويوماً صفراء ويوماً سوداء ثم يصل المهدي وعساكره إلى الدجال ويلقاه ويقتل من أصحابه ثلاثين ألفاً 00 فينهزم الدجال نحو القدس ثم يهبط عيسى إلى الأرض وهو معتم بعمامة خضراء 00 متقلد بسيفه راكب على فرس وبيده حربه 00 فيأتي المهدي وسائر الناس فيسلمون عليه 00 ثم يأتي عيسى إلى الدجال فيطعنه بحربة فيقتله ويلقيه على قفاه ميتاً ويضع السيف في أصحابه حتى يفنيهم 00 ثم يملأ الأرض عدلاً بعد أن امتلأت ظلماً حتى ترعى الوحوش والذئاب مع الغنم 00 وتظهر الأرض كنوزها فلا يبقى في الدنيا فقير 00 بعدها يخرج يأجوج ومأجوج00

قال فرج السويسي :

– ومن هؤلاء ؟

– هما ولدا يافث ابن نوح وأن أحدهما لا يموت حتى يولد له ألف ولد وعند خروج يأجوج ومأجوج تمتلئ الأرض بهم 00 حتى لا يكون للطير موضع إلا على رؤوسهم 00 يسيرون نحو القدس يطلبون قتال عيسى فإذا نزلوها رموا بالسهام 00 حتى تحول سهامهم بين الشمس الأرض من كثرتها 00 وعيسى ببيت المقدس يدعو الله في افنائهم 00 فيرسل الله عليهم خيلاً من الجن 00 سوداً قصاراً فيقتلونهم عن آخرهم 00 حتى لا يبقى منهم أحد 00

قال محمد الجرو :

–122–

– هذا عن خبر الدجال ويأجوج ومأجوج 00 فماذا عن خبر الدابة يا شيخ أنس ؟

اعتدل الشيخ أنس في مجلسه وقال :

- روي أن رأسها رأس الثور 00 وعينها عين الخنزير 00 وأذنها أذن البغل 00 وقرونها قرون الإيل وعنقها عنق النعامه 00 وصدرها صدر الأسد 00 ولونها لون النمر 00 وخاصرتها خاصرة الهره 00 وذنبها ذنب الكبش 00 وقوائمها قوائم البعير 00 ولها ثلاث خروجات أولها في أيام المهدي تفزع الناس 00 وثانيها في أيام عيسى تطهر الأرض من المنافقين وتبقى أربعين يوماً 00 وثالثها بعد طلوع الشمس من مغربها وذلك قول الله تعالى : " وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم 00 إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون " .

دب الصوت في الحارة 00 اشرأب الشيخ أنس برأسه إلى باب المسجد 00 هب الجالسون إلى مصدر الصوت يتبينون جلية الأمر :

- يا أهل حارة التفاح 00 أنا طنيب على كبيركم وصغيركم .

تبينوا شبحاً حاسر الرأس يقف في منتصف الساحة المواجهه للمسجد 00 ذراعاه يتهدلان على طول قامته الفارعه إلى أسفل من الركبه 00 حين دنوا منه روعتهم عظامه الناتئه 00 وعلى وجهه الجمجمي اختلط شعر رأسه الأشيب بشعر ذقنه التي طالت إلى منتصف صدره 00 كانت ثيابه ممزقة متسخه وإن كانت تدل علىعُلُوَّ طبقته 00 أقدامه الحافيه ترشح دماً 00 تحلقوا حوله 00 تصفح وجوههم واحداً واحداً دون أن يتعرف على أحد منهم 00 أخيراً استقر بين يدي جوهر 00 ركع أمامه وقد بلغ به الإعياء مبلغه 00 هتف بصوت تكاد تخنقه العبرات :

- دخيل الله ودخيلك يا جوهر 00

انحنى عليه جوهر ليلتقط الكلمات التي أخذت تخفت شيئاً فشيئاً 00

- حلفتك بالتراب إللي لم يونس ما تضيعني .

قالها وسقط مغشياً عليه 00

هرع فرج السويسي إلى المسجد وهو ينادي بأعلى صوته :

- إلحقنا يا شيخ أنس 00 الدابه ظهرت 00

قال مبارك :

- إن كان من أهل الحارة فلن تتعرف عليه إلا سكينه 00

أقبلت سكينه من أقصى الحارة يحف بها أحفادها وحفيداتها 00 ويتبعها آخر فوج من الصيصان تكلفت بتربيته 00 وقد ظن الفوج أنها هبت لإطعامه 00 قابلتها زينب البتير أرملة أبوغوش فقالت لها وهي تتأمل الصيصان :

- ذكرالله على صيصانك 00 كبروا وصاروا ديوك وفراريج .

أزاحتها بعصاها جانبا :

- مش وقتك يا زينب 00 زيحي من طريقي خلليني أشوف هالبليه إللي انحدفت علينا .

فترت همة الصيصان بعد أن أيقنوا أن هبة سكينه لم تكن لإطعامهم 00 وبدأوا في التراجع إلى فناء الدار .

تأملها جوهر 00 لابد أنها في الستين ولكن عينيها مازالتا تلتمعان برعونة الصبا 00 وجهها مازال رغم غضونه بهياً مشرقاً 00 دفعت الجمع بعصاها حتى صارت أمامه مباشرة 00 حدقت في وجهه المغطى بالشعر ثم أشارت إليهم :

- الوجه ليس غريباً علي 00 انزعوا قميصه 00

-124-

حينما نزعوا القميص ظهرت فوق صدره وعلى موضع القلب تماماً كتابةٌ بالوشم 00 رفعت سكينه رأسها وألقت عليهم المفاجأة التي عقدت ألسنتهم من الدهشه :

- هادا قلة سلامة نظمي الكلاغاصي .

احكمت اللثام على وجهها وانطلقت من حيث أتت .

شق شكري البعبوز الجمع المحتشد حول نظمي بيك وانحنى على الجسد المسجى 00 تحسس بيده جبينه ووجهه ورقبته 00 أمسك به من أكتافه وضمه إلى صدره وهو يبكي :

– أهلك ولاتهلك يا بني آدم 00 أهلك ولا تهلك .

حمله على كاهله ومضى به إلى بيته .

هز جوهر رأسه :

– أصيل يا شكري 00 أصيل وابن ناس .

قال السويسي :

– معلوم 00 عليَّ الطلاق ما بحن على العود إلا قشرو .

أمر مبارك باستدعاء الطبيب لعلاج الكلاغاصي قبل فوات الأوان .

(20)

جمع مولانا القاضي الشيخ محمد سكيك أرباب التكلم 00 المفتي مولانا الشيخ أحمد محي الدين عبدالحي الحسيني 00 ونقيب الساده الأشراف الشيخ مصطفى أفندي شعشاعه العلمي وإمام المسجد العمري الشيخ محمد ساق الله 00 والأئمة والعلماء 00 ومشايخ الحارات وكبار التجار والملاكين 00 وشيوخ الحرف 00 وقد حرص أن لايعلم بالدعوة مصطفى الكاشف أو أحد من أعوانه الذين اغتصبوا السلطة 00 ووزعوا المناصب على أنفسهم 00 حتى أنه لم يوجه الدعوة إلى مبارك أيضاً 00 فقد علم القاضي أن مبارك وصل غزه قبله بأسبوع 00 وأنه لم يذكره أو يذكر الوالي بخير منذ وصوله 00 والحقيقة أن مولانا القاضي ندم لتشفعه فيه 00 وقال للواشين الذين سعوا بينهما :

– أبت النفس الخبيثه أن تفارق الدنيا حتى تسئ إلى من أحسن إليها

جاءوا إلى بيته تحت جنح الظلام فرادى 00 خوفاً وطمعاً 00 فهم من جهة لا يريدون اغضاب مصطفى الكاشف حتى لا يبطش بهم 00 ومن جهة أخرى لا يريدون أن يخسروا رضا الوالي الذي هو مندوب السلطان وولي الأمر الشرعي الواجب الطاعة 00 والذي مازالت قواته تحتشد على طول الطريق بين يافا وغزه استعداداً لإقتحام المدينه 00

قال نقيب السادات الأشراف :

– هذه هي الفتنة التي حذرنا منها رسول الله ﷺ حين قال : " الماشي فيها خيرٌ من الراكب والقاعد فيها خيرٌ من الماشي " 00

عقب المفتي على ذلك بقوله :

- ومن لم يصانع في أمور كثيرة
يُضرس بأنيابٍ ويُوطأ بمنسم .

سكت الهرج والمرج حين وقف القاضي يخطب فيهم :
حمدالله وأثنى عليه 00 وطلب منه أن يكشف الغمه 00 ويلطف بالأمه 00 ثم توجه إلى الحاضرين بقوله :
– تعرفون ما آلت إليه الأمور في غزة 00 وما يبيته الوالي ويعد له العده 00 وقد حملني رسالةً إليكم 00 وما على الرسول إلا البلاغ المبين .
قال المفتي :
– هاتِ ما عندك وعلينا السمع والطاعة 00
عقب نقيب السادات الأشراف :
– طاعة ولي الأمر من الواجبات الشرعيه والحقوق المرعيه .
بدأ مولانا القاضي في القراءه :
" من عبدالله باشا إلى أهالي غزه 00 قدوة النواب المتشرعين نائب غزة هاشم حالاً حسين أفندي زيد فضله .
قاطعه شيخ الشجاعية بسخرية :
– هادا صار في يافا 00 بعد ما فكوا عنوا الحبل عند جميزة صالحه
سكت القاضي ممتعضاً 00 فشجعه المفتي :
– أكمل أيها القاضي ولا تلق بالاً لهذا الدقران 00

-127-

أكمل القاضي :
سيدنا ومولانا عين السادات الفخام القاضي الشرعي الحنفي دام فضله وزاد عُلاه وكيل النائب بمدينة غزة هاشم 00
– سمعاً وطاعة .
افتخار العلماء الكرام المأذون بالإفتاء زيد علمه 00
قال المفتي وهويترنح من العجب والخيلاء :

- بخٍ بخ .
- فرع الشجرة الزكيه قائم مقام نقيب السادات الأشراف زيد شرفه 00
هز نقيب السادات رأسه يمنةً ويُسرةً وهو يقول :
- سميعاً دعوتَ 00
وقدوة الأماثل والأقران ميرالاي زيد قدره .
قال شيخ الشجاعيه :
- هادا إللي عينوه مطرح التفكجي 00 ومن حدها ما ظهر ولا حدى عارفوا ميت ولا طيب 00

انخطف وجه مولانا القاضي وهم بالجلوس لولا أن باقي الجالسين صبوا لومهم وتقريعهم على شيخ الشجاعيه 00 طالبين منه السكوت وعدم المقاطعة 00 فأكمل القاضي :

ومفاخر أقرانهم علماء وخطباء وأئمة وسائر وجوه البلاد وأرباب التكلم بوجه العموم ، يحيطون علماً 00 طرق مسمعنا بأن بهذه الأثناء تظاهرتم بالعصيان لطرفنا وصار بينكم وبين عرب التياها والترابين اتفاق ، وبذلك الوقت افتخار الأماجد والأعيان متسلمنا في لواء غزه والرمله ويافا ولد حالا حسين أغا زيد مجده 00 مرسل لطرفكم وكيل من طرفه على الجمرك فطردتموه ، وسحبتم أعناقكم من قلاده الاطاعه

-128-

فقد استغربنا هذا الحال كان إيالة يافا وغزة والرملة وتلك النواحي مالكانه لنا ببراءة مخلدة بيدنا بمدة حياتنا ، كذلك لله تعالى الحمد ما وقع عليكم ظلم وتعدي يوجب منكم هذا الفساد الذي وقع منكم ، بل أموال
الميريه المرتبة من قديم الأيام وسالف العصر والأوان .
(هنا تهدج صوت القاضي 00 وهو يتكئ على كل حرف من حروف الجملة الخاصة به في الخطاب) :

وبورود جناب شيخنا الشيخ محمد أفندي سكيك المحترم لطرفنا 00 سمحنا منها بمقدار وافر مرحمة للفقراء وتلطفاً للرعايا . وبعد هذا كله لله تعالى الحمد عساكرنا وافيه ، وكما تعلمون وتتحققون أن لواءهم دائماً منصور ، ولا يمكن يتوجهوا إلى محل إلا والنصرة أمامهم .

وربما بلغكم ما حصل من الخاسر درويش باشا وأعوانه بالوقعات المتعددة وهي وقعة راشياً ووقعة جسر بنات يعقوب ، ووقعة المزه التي هي أبواب الشام ، وحصره داخل قلعة الشام والمولى تعالى كان عاطينا الشام ، وأسره وأسر من يلوذ به ، ولكن مرحمة للفقراء وصيانة للعرض ولئلا تتعطل مصلحة الحج الشريف عدلنا عن دخول عساكرنا للشام وأمرناهم بالقيام والرجوع إلى جسر بنات يعقوب .

قال شيخ الزيتون :

– قُصُرْ ديل .

وعلق شيخ الدرج :

– مش كل مره بتسلم الجره .

رد الشيخ محمد ساق الله إمام المسجد العمري الكبير :

– هلقيت إحنا في جرارك وأباريقك يا شيخ الفواخير ؟!

-129-

أكمل القاضي دون أن يعيرهم التفاتاً :

– هذه الماده ما حصلت منكم إلا من عدم تبصركم بالأمور لكونها مادة تصير سبباً لإباحة دمكم وعرضكم ومالكم ، وتصيروا عبرة لمن اعتبر فلزم الآن اخباركم بذلك لكي تعلموا وتتحققوا أن عساكرنا بحوله تعالى وافرة ، مكملين العدة والعدد ، ومتأهبين بهذه المرة للإنتقام من كل طاغي وباغي متعدي الحدود ، وأيديهم على براجق السيوف 00

امتلأت قلوبهم خوفاً وهلعاً 00 فوقف المفتي ورفع يديه يدعو للوالي 00 وقفوا جميعاً يُؤمِّنون وراءه 00 ما عدا شيخي الدرج والشجاعيه 00 رآهم شيخ الزيتون جالسين فجلس 00 ووضع ساقاً على ساق .

قال شيخ الشجاعيه :

– صرنا ثلاثه .

– اللهم انصر سيدنا الوالي وثبت أقدامه 00

– آمين

– وأسعد أيامه

– آمين

– وارفع أعلامه

– آمين

– ونوله غايته ومرامه

– آمين

بوغتوا بدخول مبارك شيخ التفاح أُسقط في أيديهم .

قال شيخ التفاح :

-130-

– لاشك أن هذا الدعاء الصالح للمجاهد في الله 00 تلميذ تاج الدين الخروبي وصفيه 00 أخينا وإمامنا مصطفى الكاشف 00

سكتوا وقد انخطفت أنفاسهم 00

جلس مبارك 00 وأشار إليهم بالجلوس فجلسوا واجمين 00 التفت إلى القاضي وقال له :

– أكمل يا مولانا القاضي رسالة سيدك الجزار 00

احمر وجه القاضي 00 واصفر 00 وبلع ريقه 00 ولكنه لم يجد مفراً من المضي في القراءه 00 فتابع بعد أن تشَّهد على روحه 00

– وعلى الخصوص الاتحاد والاتفاق الواقع بيننا وبين سعادة والدنا الدستور الوقور الأكرم والأصف المشير الأفخم والي الديار المصريه حالاً الحاج محمد علي باشا الأعظم وإظهار زيادة ميله وحبه القلبي لطرفنا ، فتأكيداً لذلك قبل تاريخه أرسل طلب توجه كتخدانا " نائبنا " لعنده لأجل يوقفه على زيادة ميله وحبه الأكيد لطرفنا ويحقق لنا ذلك بالمواجهه 00 ومن بعد الاتكال على واحد أحد قبل تاريخه بيومين سيرنا ولدنا كتخدانا المومى اليه لطرف سعادة المشار اليه ان شاءالله تعالى قريبا 00 يحضر كتخدانا من ذاك الجانب ويتضح للجميع اتحاد الحال بيننا وبين سعادة المشار اليه 00 من المعلوم مهما طلبنا عساكر من جانب سعادته فلا يمنع تسايرهم 00 وتصبحون أنتم فيما بين أرجل سعادة المشار اليه وأرجل عساكرنا وتندمون حيث لا ينفع الندم ، فها نحن عاملناكم بالرفق والرحمة لقول القائل من حذر فقد أنذر .

قال مبارك بصوتٍ هادئ لا انفعال فيه :

– ومن تخد الضرغام في الصيد بازه
تصيده الضرغام في من تصيدا

أكمِل 00

تلفت القاضي يستمد العون ممن حوله فوجدهم مطرقين رؤوسهم إلى الأرض كأنما يتهربون منه 00 أدرك أنه أصبح وحيداً 00 فتهالك على كرسيه 00 تناول مبارك الورقة وقرأ بسخرية ومرارة :

– المراد تجمعوا كباركم وعقالكم وأفنديتكم وعلماءكم واختياريتكم وتتلوا مرسومنا هذا علنا ، وتمعنوا النظريه ، وبالحال ترموا القبض على الشقي الخائن مصطفى الكاشف وترسلوه ليافا لعند متسلمنا المومى اليه تحت

الحفظ وتقدموا مراسم الاطاعة لطرفنا وتتعاطوا أشغالكم وأعمالكم وتكونوا براحتكم .

وبهذا تغتنموا دماءكم وأموالكم وأعراضكم ، فإن فعلتم ذلك وهو المتقدم ذكره برمي القبض على الخائن مصطفى الكاشف وقدمتم أنفسكم للاطاعة لطرفنا ، وتركتم هذا الحال فعليكم أمان الله ورأي الله ورأي

جدنا الأعظم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم رأينا .

سأل شيخ الشجاعيه نقيب السادات :

– كيف يدعي هذا الأفاق الأشر أنه سبط رسول الله 00 لماذا لم تخبرنا أنه ابن عمك ؟!!

تدخل المفتي لنجدة نقيب السادات :

– في الحديث الشريف : " أنا جد كل تقي ولو كان عبداً حبشياً 00 " .

أكمل مبارك القراءه :

– وإن أبيتم وعلى غيكم تماديتم فها هي عساكرنا المنصورة مهيأة للقتال كما ذكرنا وعساكر سعادة والدنا المشار إليه تحت طلبنا، وحينئذ لا أمان عليكم ولا رأي ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ، فبناء

-132-

على ذلك أصدرنا لكم مرسومنا هذا من " ديوان الجهاد محروسة عكا المحمية ، بوصوله تدققوا في معناه وتجنبوا مخالفته وتعتمدوه غاية الاعتماد " .

مؤرخ في 12 / مارس / 1831م

أنهى شيخ التفاح قراءته وسأل شيخ الزيتون :

– كم رجلاً أعدت حارتك لمواجهة الجزار ؟

– أعدت الحاره كل أهلها 00 وحياة التراب إللي لم يونس 00 ورحمة الخروبي 00 ما يتأخر حداً عن مصطفى الكاشف .

توجه مبارك إلى الحاضرين وسأل :

– من يبايعني على الجهاد خلف مصطفى 00 حتى يكتب لنا الله النصر أو الشهاده؟

هبوا إليه من كل صوب :

نبايعك 00 على بركة الله 00 نحن جند الحق 00 نحن معك 00

تأخر عن المبايعة المفتي ونقيب السادات والقاضي وبعض أئمة المساجد 00 تصفحهم مبارك وقال لهم :

– مصطفى يريد منكم البقاء في وظائفكم وأعمالكم 00 وسوف يتدبر أمر رواتبكم 00 على أن تكفوا ألسنتكم عنه 00 ولا تمالئوا الجزار عليه 00 ويقول لكم :

– " إذا لم تكونوا قادرين على نصرة الحق فلا تعينوا على الباطل " .

ثم التفت إلى قاضي غزه وقال له :

– تشفعت لي عند سيدك والي عكا 00 وسوف أتشفع لك بها عند مصطفى الكاشف 00 فلا تعد إلى ما كنت فيه إن أردت أن تحتفظ برأسك 00 واكتب لسيدك الجزار ما رأيته وسمعته وقل له : " يريد الله

-133-

أن يمن على الذين استضعفوا في الأرض و يجعلهم أئمة و يجعلهم الوارثين 00 " .

دخل المجلس نظمي الكلاغاصي يستند إلى كتف سلامه أبو غوش 00 كانت هذه أول مره يغادر فيها بيت شكري منذ سقط مغشياً عليه في ساحة الأيبكي 00 ألقى عليهم السلام وقال للقاضي :

– سمعت أنك أحضرت كتاباً من عند الوالي 00 هل ذكر في كتابه شيئاً عن الصليان ؟

نظر إليه مبارك في أسى بالغ وقال في سره : الزلمه انصاب في عقلو 00 لا حول ولا قوة إلا بالله 00 ناوله الرساله :

– هاك رسالة الوالي يا نظمي بيك 00 بِلَّها وإشرب ميِّتها 00

انصرف مبارك وهو يحوقل 00 وانصرف الآخرون 00 سلامه أبو غوش ترك نظمي في بيت القاضي يقرأ مكتوب الوالي بلهفة وانطلق إلى بيت خاله 00 مؤملاً نفسه برؤية عدله 00 وصوته يلعلع في فضاء الحاره :

جبـل لبنــان مــن عقلـي بنيتـو
ونـهر النيـل مــن دمعـي جريتو
إجى مكتـوب لســه مـا قـريتــو
على الله يكون من عند الحباب

(21)

كان عبد الوهاب منذ انضم إلى فرسان الهنادي يظهر كل يوم مواهب جديده وكفاءةً عاليه 00 وانضباطاً صارماً 00 مما جعله يتقدم على أقرانه بسرعه 00 وها هو قائد سلاح الفرسان يختاره نائباً له بعد أقل من عام على التحاقه بفرسانه 00 حملوه إلى القلعه لكي ينعم عليه عاهل مصر بالرتبة والخلعه 00 ويقلده السيف والشاره .

في الجيش والبحريه والفرسان ظللو يعيشون حالة طوارئ مستمرة منذ أشهر 00 الخطط قد تم وضعها 00 والمناورات قد أجريت في صحراء مصر الشرقيه بنجاح لإحتلال أهداف قريبة الشبه بمدن الشام 00 وكان الجميع يتابع الإضطرابات والفوضى التي انتشرت في بر الشام كله 00 ولم يبق إلا أن يصدر محمد علي أوامره للقوات بالتحرك 00

كانت عيونه ترصد كل شاردة وواردة 00 من واحة العريش حتى جبال طوروس 00 وقد حمل بعض هؤلاء الرسائل إلى عبد الوهاب من مصطفى الكاشف ومبارك وجوهر 00 فاطمأن باله على أهله 00 وأهل حارته 00 وأهل الوادي 00 وأرسل يطمئنهم ويبشرهم بقرب الخلاص حين وصلوا القلعة تهيب عبد الوهاب المكان وتذكر أن الرجل الذي سيقف بين يديه هو أداة التغيير الحازمه في مصير أمة الإسلام 00 وأن دماءًا كثيرة قد أريقت على عتبة هذا التغيير 00 مذبحة المماليك التي جعلت منه سيد مصر بلا منازع 00 ومعركة الإسكندرية التي رد فيها

-135-

جيش الإنجليز خاسراً ذليلاً 00 والتي جعلت منه بطلاً بحجم الأحلام العريضة للعرب والمسلمين .

في صالونٍ صغير ملحق بقاعة العرش 00 حيث يستقبل محمد علي ضيوفه ورجال دولته 00 أدى عبدالوهاب التحية للجالسين في ركن الصالون 00 كانوا أربعة عرفهم في مناسباتٍ عديدةٍ قبل يومهم هذا 00 أولهم سيده وقائده الأعلى إبراهيم باشا ابن محمد علي 00 والثاني سليمان الفرنساوي مستشاره العسكري 00 والثالث الوزير شريف بك 00 والرابع إمام الجيوش المصرية الشيخ الأزهري المعمم رفاعة بيك الطهطاوي 00 أشار لهما الباشا بالجلوس 00 فجلسا في الركن الآخر وتابع الجالسون حديثهم .

قال رفاعة الطهطاوي :

- إن إنهاض الأمة الإسلامية من كبوتها 00 وإمدادها بعناصر القوة والغلبة لتصمد لكيد أعدائها 00 والطامعين فيها 00 هي أوجب واجبات السلطان 00 فإذا تهاون في ذلك 00 أو ظهرت عليه علامات الخنوع والعجز 00 سقطت بيعته من الأعناق واستوجب أن يلي الأمر من هو خير منه 00 وإن جوهر الأمة الإسلامية ومعدنها الأصلي هو أمة العرب 00 التي طابت أرومة 00 وزكت جرثومةً 00 وعلى كل من يريد بالإسلام والمسلمين خيراً أن يبدأ بالعرب 00 (ألا إن في هذا الجسد مضغةٌ إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله وهي القلب)00 وأمة العرب هي القلب من الإسلام والمسلمين .

ضحك شريف بك وقال لإبراهيم باشا :

- هل عرفت إلى أي مدى يتوجب أن تصل جيوشك ؟

أجاب إبراهيم وعلى فمه إبتسامةٌ عريضة :

-136-

- إلى المدى الذي يتكلم الناس فيه بالعربيه .

قطب سليمان الفرنساوي وقال :

- أرجو أن تسمح لكم أوروبا بذلك .

بوغتوا بتدخله 00 سأله ابراهيم أن يفسر كلامه 00 فتابع :

- هذه المنطقه من العالم أعني بلاد العرب أو بلاد الإسلام 00 كانت وحدها مصدر الخطر على أوروبا عبر التاريخ 00 من هذه المنطقه جاء هنيبال وحاصر بأفياله روما 00 ومنها تدفق المسلمون ليحتلوا أسبانيا خمسمائة سنه 00 وليحتلوا القسطنطينية ويصلوا إلى فينا في قلب القاره 00

تابع الشيخ رفاعة متجاهلاً ما سمعه من سليمان الفرنساوي :

– وحَّدنا مصر والجزيرة العربية 00 والآن جاء دور سوريا 00 فإذا استقرت الدولة العربية الوليدة فسرعان ما يلحق بها العراق والأشقاء في المغرب 00 ثم ينحاز إليها باقي المسلمين 00 عندها يتحقق الحلم الكبير ويصبح للإسلام دولة قوية مهابة عزيزة الجانب 00 تتحدث بلغة القرآن 00 وتحكم وتدار من المركز والصدارة 00 وليس من طرف من أطرافها البعيدة كما هو الحال بالنسبة للآستانة .

قاطعه سليمان الفرنساوي :

– لا 00 لا 00 لن تسمح أوروبا لهذه الكوابيس أن تستيقظ من جديد00إن قيام دولةٍ قويه في هذا الجزء من العالم 00 هو من المحرمات 00 تابو .

انفتح الباب المؤدي إلى القاعة ودخل أميرلاي موتوش باشا يتبعه آرتين بيك الترجمان 00 همس في أذن إبراهيم باشا فأشار إلى قائد فرسان الهنادى وعبد الوهاب بأن يتبعاه 00 أديا التحية أمام القائد

–137–

الأعلى الدستور الوقور محمد علي 00 باشا مصر والجزيرة العربية وكاندي وفاتح السودان وكردفان ودارفور 00 قاهر الإنجليز والموره والوهابيين 00 استرق عبد الوهاب النظر إليه 00 كان يغطي رأسه طربوش بسيط بشرابة زرقاء متدلية إلى الخلف 00 يرتدي صديريا من الجوخ الأزرق مطرزاً بشرائط حريرية 00 وسروالاً عريضاً من اللون نفسه 00 وخفين أحمرين بالإضافة إلى سيفٍ برباط أحمر 00 ويحمل بين يديه مسبحةً من الكهرمان .

كانت ملامحه تتسم بالوقار والهدوء ولم يظهر عليها أي أثر للقسوة 00 انحنى عبدالوهاب على ركبتيه أمام الوالي 00 قلده الوالي

السيف وثبت على كتفه شارة الفرسان 00 قبَّل ركب الوالي 00 ودعا له بالنصر 00 ابتسم الوالي وسأله :

– أنت من غزة ؟؟ ماذا يقولون عني في مدينتكم ؟

– يقولون يا سيدي أن الله أعز بك الإسلام 00 وينتظرون جيوشك الظافرة لترد لهم الأمن والكرامة والعدل 00 ويبايعونك على الموت في سبيل الله 00 أو ينصرك الله ويعز بك دينه وعباده

ربت الوالي كتفه وقال لولده إبراهيم :

– لقد أحسنت الإختيار .

ثم سأل قائد فرسان الهنادى :

– هل كل رجالك على شاكلته ؟

– كل رجالي يفتدونك بأرواحهم يا سيدي .

هز محمد علي رأسه والتفت إلى ابراهيم باشا :

– هل أجبتم رسالة مصطفى الكاشف ؟

– نعم يا سيدي وأرسلنا له البنادق والذخائر التي طلبها 00

-138-

أشار بيده 00 فانسحبوا من الحضرة 00 خرج عبد الوهاب والسعادة تفعم روحه .

في معسكر الفرسان على تخوم القاهره 00 استقبلوا عبدالوهاب بالعناق والفرحة تملأ قلوبهم 00 وبعد العشاء الدسم الذي أعدوه بهذه المناسبه دارت فناجين القهوه 00 وانتصب السامر وبدأ الرازع غناءه الرقيق العذب :

خسارة الزين يمشي في نهار الشوب
سبع بوابير ما شالن حرير الثوب

***

يا عين لا تدمعي دوب النظر دوبه
واللي رماه الوعد 00 يصبر لمكتوبه

***

يا من درى بعد غيبتنا وكيفن صار
ودي أسأل الريح بلكنَّه يجيب اخبار

***

طولَك قصب مص واشعورَك احبال البيت
وانت حـلاة العمـر لــو رحـت ولا جـيت

تذكر الجازيه وشعرها الطويل إلى الركبه 00 مسح دموعاً كثيره تحدرت من عينيه 00 ارتفع اللهب في الراكيه 00 فانفضح أمره 00 لاحظ الرازع دموعه 00 فأهاب به أن يتجلد 00

-139-

يا راس الرجاجيــل لا تاخـد علـى بالك
كل العرب كوم 00 وانت كوم من حالك

هدهد دموعه 00 وأخذ يتابع السامر والشجن يملأ قلبه .

-140-

(22)

على طرف سوق الحاره جلسوا على الأرض وظهرهم يستند إلى جدار أوشك أن ينقض على أهله من تقادم العهد .

كان نظمي بيك في إحدى نوبات الصحو التي تُلم به يحدثهم عن ذكرياته في اسطنبول 00

– أراد السلطان محمود تنظيم قصره الجديد 00 وأن يزوده بخيرة الجنابنيه العاملين عنده 00 أمر بجمعهم في باحة القصر 00 كانوا ثلاثمائة تفقدهم كلا على حده واختار عشرين شخصاً حرص على أن يكونوا الأنظف والأحسن هنداماً والأكمل مظهراً 00 ثم سأل عن أسمائهم 00 هل تعرفون من كان هؤلاء الرجال 00

قال أهل الحارة بصوت واحد :

- كلا 00 أخبرنا يا نظمي بيك .
- كانوا جميعاً من اليونان والأرمن ليس فيهم تركيٌ واحد 00 قال السلطان بصوت مرتفع : هذا ما خمنته 00 ثم التفت إلى حاشيته وأضاف : انظروا إلى الآخرين في أسمالهم 00 وهيئاتهم المُزريه 00 إنهم مسوخ بمعنى الكلمه 00 أراهن أنه ليس بينهم يوناني أوأرمني أو مسيحي من أي مله 00 إنهم جميعاً تركوشاكيه 00 اتفوه 00 بصق عليهم 00

ضحكوا 00 وضحك نظمي حتى دمعت عيناه 00

سأله فرج السويسي :

- هل رأيت السلطان يا نظمي بيك ؟

-141-

- رأيته عدة مرات 00 ولكنني لم أتحدث إليه 00 آخر مره رأيته في يوم النزهه 00 أبحر زورق السلطان الأسود في القرن الذهبي 00 وقف على نافذة الزورق 00 كان برفقته إبناه وخسرو باشا 00 مر الزورق إلى جانب زورقنا 00 فأدينا له التحيه ولوَّح لنا بيده الشريفه00

وصل ابن عمه شكري البعبوز 00 فقام يسلم عليه 00 وانتحى به جانباً :

- الله يرضى عليك يا قاسم أغا تفتح عينك مليح إحنا إلنا أعداء إكتير 00 وأنا معتمد على الله وعليك

- معتمد عليَّ في إيش

- في موضوع الصليان 00 الصليان لازم يمشي يا أغا .

- أنا مش قاسم ولا أغا 00 أنا ابن عمك شكري .

- شكري أخدتو مركب الروم واقلعت .

هز شكري البعبوز رأسه في أسى 00 وهو يقول لأهل الحاره :

- النوبه رجعت 00 الله يسترنا .

في المره الماضيه حين حاولوا أن يذكروه بالحقيقة تلقى النبأ كأنه يتلقاه لأول مره 00 صار يرغي ويزبد 00 وانهار على الأرض وظل يتمرغ وينشج حتى غاب عن الوعي 00 لم يدر شكري بماذا يجيبه 00 لكن رضوان البطش كان قد وصل وأنقذ الموقف .

- الصليان ماشي يا نظمي بيك .

- الحارات كتبت ؟؟

- كتبت .

- الميدان ؟ وباب السريجه ؟ والقنوات ؟

- طبعاً 00

-142-

- بس العماره ما كتبت 00العماره أهلها حواوين فلاحين غُشُم 00

- يا سيدي هالمره العماره كتبت 00 ارتاح بالك يانظمي بيك .

- بس الخوف من عرابي الشوملي 00 بدو يطعم لحمي للكلاب .

- فشر 00 إنت معاك فرمان من السلطان .

أراد أن يغير الموضوع 00

- يا شكري خود إبن عمك واسعى لو في العشا 00

- صار عشا 00 والله لسه ما كسرت الصفره

- الله يكون بعونك يا نظمي بيك 00 صاحب المال بالو تعبان 00

إقتاده شكري إلى بيته وسط نظرات القلق والإشفاق التي بدت في عيون الجميع 00 حين اختفيا قال رضوان لمن بقي من أهل الحاره :

- مصطفى الكاشف سوف يزورنا الليله برفقة مبارك ليتفقد التحصينات على مداخل الحاره 00 ويتعرف على نواطير السواقي الذين عهد إليهم مبارك بحماية الآبار 00 فهؤلاء الكلاب الذين حشدهم الجزار عند وادي

هربيا لن يتورعوا عن تسميم الآبار أو عمل أي شئ 00 يسهل لهم إقتحام غزه .

شخر فرج السويسي شخرةً اهتزت لها عروش الأبالسه :

– فشروا 00

قال الشيخ أنس وهو يقف على بسطة المشمش ويلتهم ما تصل إليه يده من الثمار الطريه المملوءة بالرحيق :

– سوف يرى مصطفى الكاشف ما يسره و يثلج صدره .

علق محمد الجرو وهو يري حبات المشمش تختفي في شدق الشيخ أنس :

-143-

– تمهل 00 واختر بعناية يا مولانا 00 فالمشمش في هذه الأيام مصاب بالدود .

رد عليه الشيخ أنس غامزاً قناته وهو يواصل التهام ما تصل اليه يده :

– دود الفاكهه طاهر 00 النجاسه فيك وفي اديالك يا جرو 00

ضحك محمد الجرو .

أما سلامه فوجدها فرصة للتقرب من خاله الشيخ أنس 00 أخذ يختار له حبات المشمش السليمه 00 يفرغها من النواة ويقدمها له مردداً :

– صحه وعافيه يا خال 00 مطرح ما يسري يمري .

-144-

(23)

انتهت الحصيدة 00 الأرض المعطاءة أجزلت عطاءها 00 أعطى قنطار القمح عشرين قنطاراً 00 وقنطار الشعير ثلاثين قنطاراً 00 امتلأت الآبار والمطامير بالغلال وامتلأت الحرادس [1] بالبرغل والمفتول والشعيريه 00 أما الفول والعدس والذره والسمسم فقد فاضت عن الحاجه وباعت الحارة منها للتجار والخطارين .

أصر مصطفى الكاشف على أن يسدد أهل الحاره للخواجه داوود ابن موسى عدس دينهم كاملاً 00 وأن يعطوه الأولويه عندما يتساوى سعره بسعر باقي تجار القمح والشعير 00 إعترافاً بجميله عندما قبل تأجيل سداد دينه في العام الماضي 00 تقاضى مصطفى منهم عشر المحصول وليس ثمنه كما كان يفعل جباة السلطان .

قال لأهل الحاره :

- تعرفون أنني لن آخذ لنفسي شيئاً 00 نحن بحاجة إلى السلاح والذخائر 00 والطعام للمقاتلين من البدو والفلاحين الذين تطوعوا للجهاد معنا 00

أعطته الحارة كما فعلت باقي الحارات عن رضى وطيب خاطر 00 فالسلاح والطعام سيوزع على أبنائهم 00 وسينفق في تحصين مدينتهم والدفاع عنها 00

سمع الشيخ أنس الزغاريد في الحارة فقال لإبن أخته سلامه :

- هذا حالهم 00 إن جاعوا ونوا 00 وان شبعوا غنوا .

1. الحرادس : جمع حُردس 00 وهو مكان لخزن المونه .

-146-

عرس من هذا يا سلامه ؟

- هذا ليس عرساً 00 ولكنه احتفال بعودة مرجانه من موسم الحج 00 لقد دعت الجازيه كل نساء الحاره للإحتفال برجوع مرجانه .

- عرج بنا على جوهر لنبارك له 00

كان الرجال في مضافة شيخ التفاح قد سبقوه لتهنئة جوهر 00 شد الشيخ أنس على يد جوهر مهنئاً :

- حج مبرور وسعي مشكور .

ناوله جوهر مسبحة ومسواكاً 00

- هذا لي ؟؟

قاطعه محمد الجبري :

- لقد أرسل أمير الحج المصري مع مرجانه حمل جملين من الهدايا لجوهر 00 وها هو يسبغ عطاياه على أهل الحاره 00

قال وهو يدس الهديه في صدر جبته :

- جوهر يستحق والله كل خير .

دخل نظمي بيك المضافه وهنأ جوهر .

– يهنيك سلامة العيال .

– الله يسلمك يا نظمي .

– هالقيت راق بالك 00 وانشرح صدرك بعودة الغياب 00 بدي ياك تشد حيلك معايا 00 وتمشي لي الصليان .

قال جوهر وهو ينظر إليه بأسى :

– الصليان ماشي يا نظمي 00

أومأ لسلامه أبوغوش 00 صب قهوه لنظمي بيك .

-147-

– لا كلّو ولا القهوه 00 القهوه فيها سم سليماني 00 أنا دلقتها تحت السجاده 00 واتماوتت 00 كان قلبي حاسسني من حد ما شفت سلمون أشر على رقبتو ساعة ما دخلت عليهم هوّه وحزقيال 00 الله لا يكسبهم خير 00

إصفر وجه نظمي 00 وعاودته القشعريره التي تسبق النوبة 00

– بلاش القهوه يا نظمي 00 اتفضل ارتاح .

جلس نظمي بيك يتابع روايته :

– اضطر سائق العربه أن يهدئ سيره عند مسجد محمد الفاتح ليتفادى الذين خرجوا من المسجد بعد صلاة العشاء 00 قفزت من العربة وأسلمت ساقيَّ للريح 00 في الميناء أعطيت خاتمي لقبطان سفينةٍ ألقت بي على شاطئ يافا 00 بعد أن قضيت على ظهرها شهراً كاملاً أقاسي من الجوع والعطش 00

* * *

في بيت شيخ الحارة لم تعط الجازية فرحتها لأحد 00 كانت هي وأمها أكثر النساء سعادة بعودة مرجانه 00 وحين وصلت سكينه أعطتها مرجانه صرة من حنَّاء الحجاز 00 لتحني شيبها 00 كما أعطتها قطعة من اللبان الحجازي الثمين 00

أخذت سكينه الطبله تدق عليها ونساء الحارة يصفقن على إيقاعها 00 استخف الطرب عدله فتحزمت بمنديلها وأخذت ترقص وهي تتمايل بخصرها اللدن 00 زغردت لها سكينه منوهة بخطبتها الوشيكه لسلامه

-148-

العـود عـود القنـا 00 والشعر عرف الخيل
والخصـر مـن رقـتـو هـد القـوى والحيـل
يـا نـايمين الضحـى واتنبهـوا بالليـــــل
سـلامـه صـاد الغـزاله إللـي عليهـا العيـن

تلاقت عينا زينب البتير بعيني زوجة أخيها بهيه 00وكل منهما تتهم الأخرى بتحريض سكينه على قول ما قالته 00 أخيراً جنحتا إلى السلم 00 وانصرفتا إلى الغناء مع باقي نساء الحاره :

يا باباتـي يا باباتــي   الهنديه [1]
يا عيونـي يا عيوني   الهنديه

***

خطبونـي ألفين وميه
وأبويــا ما فــرط فيه
خطبني الوالي والقاضي
وشاهبندر في القيسريه

***

يا باباتـي يا باباتـي   الهنديه

يا عيوني يا عيوني   الهنديه

***

1. الهنديه : ثوب من الحرير المطرز 00

-149-

ما قولتلكشِ يا عبدو
الصبايا اليوم حردوا
والعجايز ما بيرضو
وكل البلد عينها عليه

***

يا باباتي يا باباتي   الهنديه
يا عيوني ياعيوني   الهنديه

***

مالك يا عبدو أنت ومالي
أبويا طالع في العالي
ولو دري عمي وخالي
سحبو السيوف المجليه

***

يا باباتي يا باباتي   الهنديه
يا عيوني يا عيوني   الهنديه

***

تفاحي لوح على أمو
يا مين يلمو ويشمو
وإللي عشق ما أكبر همو
يرعى النجوم للصبحيه

***

-150-

يا باباتي يا باباتي   الهنديه
يا عيوني يا عيوني   الهنديه

أتمت عدله رقصتها 00 فنزعت المنديل عن وسطها 00 وجلست إلى جوار أمها سعيدةً بما نالته من إعجاب .

ارتفعت الزغاريد 00 وانطلق صوت ليلى بنت سالم 00 زوجة شيخ الحاره تغني لمرجانه والنساء يصاحبنها

السلامه غنيمه يو
السلامه غنيمه يو

***

لافرش حصيرة جديده وا
اقعـد عليهـا الحبيبه وا
قول سلامه غنيمه يوه

***

السلامه غنيمه يو
السلامه غنيمه يو

زغردت الجازيه لزوجها الغائب :

يا وهبه يا تاجي ويا شعري على اكتافي
يا دارنا الواسـعه ويا بحـرنا الـوافـــي
إمتى تعـود مـن غيبتك وتقـول عـوافــي
وتملا صدور اعداك بارود ورصـاصـي

دمعت عينا الجازيه 00 فبكت مرجانه 00 وبكت معها كل نساء الحاره

(24)

حمل رضوان البطش كرسي الداية على ظهره من الحارة إلى الرنجس حيث أملاك عائلة البطش 00 كانوا يقضون شهور القيظ كل سنة في كرومهم كما يفعل باقي أهل الحاره 00 حين وصلوا الكرم أوقف

الحمار على باب الصيره [1] وساعد الدايه في النزول عن ظهره 00 نصب الكرسي داخل الصيره وحفر أسفله حفرة عميقه لكي تطمر فيها الدايه الخلاص والدم المصاحب للولاده 00 أوصى أهل بيته بمساعدتها 00 كانت زوجته تستقبل الطلق 00 وهي تستند على عمود الصيره 00 مكابدةً آلامها بصمت والدموع في عينيها 00 شجعها بلمسة من يده 00

– شدي حيلك 00 الله معك 00 وان شاالله تقومي بالسلامه 00

وقال في سره :

– بلكي على هالطلق الشديد يجينا إغلام .

اتجه إلى الجميزه الكبيره حيث يستقبل ضيوفه 00 فرد الحصير 00 وأشعل النار لكي يبدأ في تحميص البن 00 لعبت برأسه الوساوس 00 هل ستلد بنتاً لكي يصبح لديه تسع بنات ؟!

كل الذين رأوه يسحب حمار الدايه 00 عرفوا أن زوجته على وشك الولاده 00 ولابد أن يهرعوا للإطمئنان والمشاركة بما يستطيعونه في يوم كهذا .

1. الصيره : كوخ من القش وفروع الأشجار 00 يتخذه الفلاحون مأوى لهم في الصيف

–152–

تمنى لو أنهم يعفونه من حضورهم 00 فما أقسى نظراتهم المفعمه بالشفقه وهم يواسونه كلما رزق بنتاً جديده .

– الله كريم يا رضوان .

– عطية الله منيحه .

– يهنيك بسلامة الوالده 00 سلامتها بالدنيا .

– إللي بتجيب البنت 00 بتجيب الولد 00 الجبار عظيم .

في المره الأخيره التي رزق فيها بنتاً أوشك على الإختناق من الغيظ 00 لولا أن فرج السويسي الذي خلف سبعة أولاد 00 ولم يرزق

بنتاً أحال الموقف كله إلى الدعابه 00 وشرح صدره ببراءته التي تشبه براءة الأطفال .

– عليَّ الطلاق نفسي أخلِّف بنت 00 يا زلمه تربابة الأولاد زي قَرْش الصِوَّان 00 إيش رايك 00 نلقي المال على بعضو 00 أنا باخذ بناتك 00 وإنت خود أولادي 00 وبنصير عيله واحده خِلط 00 بِلْط 00 وهاي الشيخ أنس والشهود جاهزين .

يومها أجابه رضوان :

– هذا شرف إلنا يا أبوحسن 00 خللي البنات والأولاد يكبروا 00 وبصير خير00

هذه المرة أيضاً 00 كان أول الوافدين صديق عمره فرج ما غيرو يحمل صرة من البن 00 ثم جاء الدهدار والشوا والجرو 00 يحملون رؤوس السكر .

نحاه محمد الجبري عن البكرج فحمل سلاً من البوص 00 ومضى إلى داخل الكرم ليقطف لهم عناقيد العنب 00 تولى الجبري تحميص البن ووضعه في المصحان 00 تناول عصا البن الغليظه وأخذ

-153-

يهرس الحبات السوداء 00 فاحت الرائحة الزكيه 00 وتحلب لها لعاب القوم .

قال السويسي :

– أُجرشها جرش 00 وأُطبخها طبخ الكرْش .

أمنوا على كلامه :

– معلوم 00 القهوه لازم تتسبَّك .

– أي والله 00 خليها تخرُط مليح .

– هاكيف .

أخيراً ألقم الجبري البكرج 00 وتركه يغلي على نار هادئه .
قال محمد الجرو :
– أين شيخ حارتنا يا فرج 00 لا نكاد نراه هذه الأيام ؟
قال فرج :
– حاول بعض عساكر الجزار أمس التسلل إلى غزه 00 ولكن رجال مصطفى الكاشف ردوهم على أعقابهم 00 وقتلوا إثنين منهم 00 ومبارك يساعد مصطفى في تعزيز نقاط المراقبه التي وضعوها حول وادي هربيا .

وصل شكري البعبوز ومعه ابن عمه نظمي بيك 00 لاحظوا أن وجه نظمي إزداد شحوباً 00 وأن تصرفاته زادت خفة ورعونة .
سأل فرج السويسي شكري بإشارة من يده :
– كيف حالو .
قال شكري هامساً دون أن يلاحظه ابن عمه :
– الله يشفي .

-154-

جلسوا جميعاً 00 وظل نظمي بيك واقفاً 00 أخيراً نفذ صبره 00 وضع يديه في خاصرتيه وانفجر غاضباً :
– دوشك جاتر ياهوه ؟ .
فغروا أفواههم من الدهشه 00 وتهامسوا 00 نظمي بيك بدو كرسي 00 يقعد عليه .
ضحك فرج السويسي :
– عليَّ الطلاق ما حيلة هالحاره إلا كرسي الدايه 00 واليوم بعلمك يا نظمي بيك 00 الكرسي مشغول

تمدد نظمي على ظهره فوق الحصيره ونظر إلى فروع الجميزه المثقله بالثمار 00 ثم سألهم باللغة التركيه وبلهجةٍ فظَّه :

– أحمر مدندل نادر بو؟؟ [1]

قالوا له وقد تعودوا مسايرته :

– هذا جميز يا نظمي بيك .

اعتدل في جلسته وتابع حديثه :

– اسطنبول فيها شجر كستنه 00 شجر خروب 00 شجر بندق 00 بس ما فيها جميز 00

ثم أشار إلى ابن عمه :

– على علمك يا قاسم أغا 00 الجميز كم مره بطرح في السنه ؟

أجابه ابن عمه مسايراً :

– بطرح سبع مرات .

– مساكين أهل اسطنبول 00 الله حرمهم من هالنعمه 00

1. ما هذا الشئ الأحمر المتدلي ؟

-155-

قالها وأطلق عقيرته بالغناء :

كول جميز واشرب ميه
وإيش ما جرالك عليه
كول جميز واشرب ميه

نظر بعضهم إلى بعض وهم يرثون لنظمي و يطلبون له الشفاء 00 قلب النظر فيهم ثم تمدد على الحصير وغط في النوم .

عاد رضوان وقد ملأ السلة بقطوف العنب الشقراء التي لوحتها الشمس 00 نضح السلة بالماء البارد من بعبوز الكراز 00 ثم رص القطوف على الصينيه ووضعها أمامهم .

إمتدت الأيدي تقطف حبات العنب الممتلئة بالرحيق 00 تحركت الأشداق 00 وتلمظ القوم .

قال السويسي :

– بز البقره وبس .

عارضه الجرو :

– بز البقره مليح 00 بس ما بِتوصَّل الزيتاني 00 قال المثل : " إن غاب الضاني 00 عليك بالزيتاني "

تناول الدهدار طرف الخيط وشمَّع :

– والدبوقي عاطل ؟ 00 وقلب الطير 00 ؟ والماوردي 00 والمعطر 00 ؟ والخليلي 00 ؟

تدخل رضوان البطش مهدئاً :

– كل هالمعركه على العنب00خلوا إشويه لمن نحط التين واتقاتلوا مين أحلى وألذ 00 الموازي ولا السماري 00ولا البحاري 00 والا تُم العبده

فارت القهوة 00 فابعدها الجبري عن النار 00 حتى ركدت تماماً 00 تناول الفناجين وصب لهم دوراً من الساده 00 خفتت حدة العِراك حول أنواع العنب 00 وانشغلوا بارتشاف قهوتهم 00

قال الشيخ أنس :

– يا جماعه كله فضل وخير من الله 00 إللي أنعم على غزه بكل أنواع الثمار 00 كل موسم وله ثمارهِ على مدار السنه 00

نحىَّ فنجانه جانباً 00 ونظر إلى الأُفق 00 كانت الشمس قد توارت تماماً 00 واختفى الشفق الأحمر الذي يصاحب الغروب 00 تنحنح الشيخ أنس وهتف :

– الآذان يا سلامه .

أذن سلامه لصلاة المغرب 00 بصوته الجميل .

لم يكد الإمام ينتهي من الصلاة 00 حتى جاءت البشرى من الصيره .

– ولد 00 ولد 00 مبروك 00 مبروك .

إهتز رضوان 00 وطفر الدمع من عيونه 00 أحس قلبه يكف عن الخفقان .

– أخيراً 00 أصبح لي ولد يحمل إسمي 00 ويرثني 00 ويكون عوناً لي في شيخوختي وسنداً لأخواته البنات 00 ياما انت كريم يا رب .

هبوا لمعانقة رضوان البطش وتهنئته 00 وقبل أن ينصرفوا قال لهم :

– شرفونا على السبوع 00 سأولم لكم جريشه 00 سأذبح كبشين عقيقة للمولود 00 سنتشرف بالإستماع إلى قصة المولد النبوي الشريف حتى تحل علينا البركه .

تفرقوا وهم يمنون أنفسهم بالطعام الدسم .

(25)

استقر البذار في ثلوم الحرث الطويله 00 بذروا الشعير 00 ثم القمح 00 ثم العدس والحمص والفول 00 و السمسم 00 من آخر أسبوع

في تشرين الأول 00 وتشرين الثاني كله ومطلع كانون الأول 00 وفي آخر الموسم عادوا منهكين تماماً 00 وقد أوشكت غلالهم على النفاذ 00 باعوا منها وأكلوا طوال العام 00 وعليهم الآن أن ينتظروا الموسم القادم وأن يؤملوا النفس بأمطار غزيرة 00 وشموس دافئه 00 تتسل إلى عمق التربة السمراء 00 وتشق البذور والنوى 00 لتبدأ الأجنة دورة الحياة الجديده 00 منهم من استدان على الموسم 00 ومنهم من نهى النفس عن التبذير والإسراف 00 فاحتفظ لأولاده بما يمسك الرمق .

قال محمد الجرو لجاره سليم الدهدار وهما يتشمسان على المصطبه المواجهة لسوق الحاره :

– أخدنا أرض في خور الجباليه إكراب 00 حرتناها بالسكه الغميقه أول سنه وخدمناها أحسن خدمه 00 رميناها فول 00 سبحان المعطي 00 قرن الفول شبر 00 والحبه بحبتها 00 إردب الفول أعطى عشرة أرادب 00 في السنه الثانيه رميناها قمح 00 أعطى القنطار عشرين 00 والسنه 00 آخر سنه في الكراب 00 رميناها شعير 00 وإحنا والمطر 00 والله وما وعدنا .

هبت نسمة بارده 00 كانت السحب قد بدأت في التجمع منذرة بالمطر الوشيك 00 لف الدهدار جسده بالفروة 00 ونظر إلى الغرب يتأمل الغيوم الداكنه :

-158-

– إحنا في كانون 00 والكوانين فحول السنه 00

قال الجرو :

– كانون يا فحل 00 يا محل 00 وإنشاء الله سنتنا خصاب 00 السنه إجا مطر كتير 00

مر بهما علي الشوا يسوق عربته المحملة بالجلود متوجهاً إلى شاطئ البحر حيث أقام مدبغته 00 فقال مازحاً :

- بلاش تطبخوا خبيزه اليوم 00 بدي أجيبلكوا معايا أكلة سمك .
قال الدهدار :
- على شرط تكون لُقُّسْ .
- يا سيدي لُقُّسْ ولا فرّيدي 00 إللي فيه النصيب .
شيعاه بأنظارهما ضاحكين 00 مر بهما عوده الريفي مهموماً 00 ولم يطرح السلام 00 ناداه الدهدار :
- تعالى يا أبومحمد أقعد في هالشمس .
- وين أقعد وأنا ريقي بِشوي البيضه .
- خير إن شاالله ؟
- بدي حدا يسلفني على الموسم عشرين صاع قمح عشان خبز الأولاد.
سأله الجرو :
- وقمحكو 00 وشعيركو يا دارالريفي ؟
أجابه مهموماً وهو يتخذ مجلسه إلى جواره :
- السن والنار 00 ما عليهم عيار .
جاء فرج السويسي والبحطيطي واتخذا مجلسهما على المصطبة 00 كانا يتحادثان عن طلائع رجال الجزار 00 التي بدأت في التجمع عند وادي هربيا استعداداً لإقتحام غزه .

-159-

قال البحطيطي :
- لو كانت الحرب فارساً لفارس 00 أو رجلاً لرجل لما كنا نعبأ بهم 00 ولكن الأطواب التي قهر بها الجزار نابلس هي التي تخيف الناس .
عارضه فرج السويسي :
- لو كانت الأطواب هي التي تحرز النصر 00 لما انهزم نابليون بونابرت وعاد بجيشه راغماً ذليلاً .

قال الشيخ أنس :

– كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله 00 المهم صدق النية في الجهاد .

ألقى رضوان البطش السلام 00 وسأل :

– هل رأيتم مبارك ؟ لدي رساله له من مصطفى الكاشف .

نهض فرج لاستقباله :

– خير ان شاالله .

– وصلت البنادق والذخائر التي طلبها مصطفى من مصر 00 ومعها رساله من عبدالوهاب .

قال فرج السويسي :

– بشرك الله بالخير يا رضوان 00 مبارك لم يعد بعد من وادي الزيت 00 ذهب يتفقد تخوم الوادي مع جوهر ورجاله 00 فالحق به هناك .

انطلق رضوان البطش مسرعاً 00 فاصطدم بنظمي بيك 00 الذي أمسك بتلابيبه وسأله بلهفه :

– الصليان ماشي ؟!

–160–

– معلوم 00 الصليان ماشي يا نظمي بيك .

– بس قاسم قطعوه أربع شقف 00 وكان بدهم يقطعوني شقفتين .

– إللي بِرُشَّكْ بالميه بنرشوا بالدم يا نظمي 00 إنت وراك رجال .

أشار بيده إلى أهل الحارة الذين جلسوا بعمائم حال لونها 00 وقنابيز مرقعه باليه 00 يتشمسون تحت جدار المسجد الأيبكي 00 تأملهم نظمي باهتمام بالغ وسأل :

– هادولا كتبوا ؟

– طبعاً كتبوا أساميهم واحد واحد .

فرك نظمي بيك كفيه وظهرت على وجهه علامات الإستبشار .

– معناتو قبضنا .

حذر البحطيطي أهل الحاره :

– أنا خايف نظل نسايروا 00 لما يمشّي الصليان علينا .

أجابه عوده الريفي بسخريه :

– يا سيدي ويمشّي 00 إيش ياخد الضراط من البلاط .

(26)

في مطلع نيسان كان الجزار قد أكمل حشد قواته في هربيا 00 قيل أنهم سبعة آلاف 00 وقيل عشرة انتشرت في غزه أخبار الفظائع التي ارتكبوها على طول الطريق من يافا إلى هربيا 00 الزروع التي رعوها 00 البساتين التي خربوها 00 المواشي التي سرقوها والمؤن التي

نهبوها 00 أكثر ما نشر الرعب في المدينه استباحتهم للنساء والأطفال 00 وما يتوعدون به أهل غزة من الثبور وعظائم الأمور 00 قيل أن سيدهم الجزار أباح لهم المدينه عشرة أيام بكاملها .

عقد الناس عزمهم على الدفاع عن مالهم وعيالهم 00 استدعى مصطفى الكاشف حلفاءه من التياهه والترابين وأهالي الحارات لتدارس الموقف .

في ساحة الدبويه 00 تجمع الأهالي في انتظار مصطفى 00 أمَّهم الشيخ أنس في صلاة العصر ثم جلسوا يتدبرون أمرهم .

قال محمد الجرو :

– هادولا مش مسلمين 00 عسكر هولاكو وتيمورلنك ما عملوا متلهم 00 الجهاد فيهم حلال 00 صح يا شيخ أنس .

رد الشيخ أنس :

– في الحديث الشريف " من مات دون أرضه فهو شهيد 00 ومن مات دون عرضه فهو شهيد 00 ومن مات دون ماله فهو شهيد " .

وصل مصطفى الكاشف ومعه جوهر ومبارك وشيخا التياهه

-162-

والترابين 00 تحلقوا حول مصطفى 00 أدار عليهم محمد الجبري فناجين القهوه وبدأ مصطفى الحديث :

– تعلمون أن محاولات الجزار لإستعادة غزه لم تتوقف منذ طردنا متسلمه حسين أغا 00 جلس حسين أغا في يافا يحيك لنا الدسائس ويغري بنا البدو وقطاع الطرق دون جدوى ، ثم ان يافا شهدت بعده سلسلة من المتسلمين عينهم الجزار لنفس الهدف عيسى أغا المشعلجي وسليمان أغا وصالح أغا البشناق 00 ثم محمد أغا بن سليمان زينه 00 وأخيراً ابراهيم أغا بازه 00

في هذه المره لم يكتف الجزار باستبدال المتسلم في يافا بغيره 00 ولكنه أمده بجيش كبير وقد زاد الخلاف بينه وبين محمد علي في تصميمه على إستعادة غزه 00 قبل أن يحتلها والي مصر ويضمها إلى حُكمه .

قال رضوان البطش :

– حسبنا أن السلطان توسط بينهما وفض النزاع .

رد عليه مصطفى :

– السلطان لا يفض النزاع بين ولاته 00 ولكنه يُسعِّره 00 يسلط والٍ على آخر 00 حتى إذا ضعف أحدهما 00 باع السلطان وظيفته لطامع جديد 00 يملأ خزانة الآستانه بالمال .

قال مبارك :

– إن المصريين يهربون من التجنيد للجهاديه في مصر ويتدفقون على غزه وقراها 00

التفت مصطفى إلى مبارك وسأله :

– أين استوطن هؤلاء يا مبارك ؟

-163-

– قرى غزه الشرقيه والشماليه والجنوبيه 00 فهم فلاحون لا يطيقون الإقامة في المدن ، ولدي قائمة بأسماء العائلات التي التقيت بها 00

أخرج ورقة من جيبه وقرأ : القمحاوي ، المصري ، العزيزي ، القطب غزاله ، عميره ، حجاب ، أبو العافيه ، أبوطبيخ ، البلبيسي ، الحناوي القناوي ، أبولبن ، أبو ضبه ، عرفه ، الشيخ علي ، أبو جياب ، أعوج الدمياطي .

– كفى كفى 00 هل تعتقد أنهم يشكلون خطراً علينا 00 أعني أن يكون الجزار قد جندهم أو اتصل بهم .

– كلا يا سيدي 00 هم فلاحون مسالمون ليس لهم في الحرب أو الضرب .

التفت مبارك إلى باقي الرجال .

– لقد وزعنا عليكم السلاح والذخائر التي وردت من مصر 00 وعلينا أن نباغت معسكر الجزار بالهجوم قبل أن تكمل قواته تجمعها 00 فإذا مرت ساعةٌ على هجومنا 00 أضاء ما تبقى من أهل الحارات مشاعلهم وزحفوا باتجاه المعسكر وهم يقرعون الطبول .

سأل مصطفى رضوان البطش :

– كم بواردي جمعت حارات غزه ؟

– مئه وعشرين .

نظر إلى شيخ التياهه .

– كم عدد فرسانك ؟

– طلبت مئة فجئناك بهم .

أردف شيخ الترابين :

– ومنا مئة أيضاً .

-164-

قال مصطفى :

– الغزازوه في القلب 00 والتياهه على الميمنه 00 والترابين على الميسره 00 سنحاصرهم من ثلاث جهات ونترك الشمال مفتوحاً أمامهم لنيسر لهم الفرار 00 فإذا فروا لا نطاردهم .

قال شيخ التياهه :

– سوف يكون من الصعب علينا كبح فرساننا ومنعهم من مطاردتهم .

احتج شيخ الترابين :

– كأنك تحول بيننا وبين غنيمتنا .

قال مصطفى الكاشف :

– الغنيمه في المعسكر 00 وأنا أمون على أهل المدينة والفلاحين 00 سنأخذ المدافع فقط 00 ونترك كل ما في معسكر الجزار لكما 00 تقتسمانه بالتساوي إذا لزمتما أوامري 00 أريد نصراً ولا أريد مذبحةً .

أطرقا إلى الأرض هنيهةً ثم أشارا بالموافقه 00 توجه إلى فرج السويسي وسأله :

– كم عدد المشاعل التي أعدت وكم عدد الطبول ؟

– أكثر من ألف مشعل 00 أعدت كل حارة ثلاثمائة 00 وسوف يكمنون في المواقع المخصصه لهم أما الطبول فقد تم جمع طبول الدراويش 00 علي الشوا تبرع بكل مخزون المدبغة من الجلود عن طيب خاطر 00 وصنع الغرابليه [1] منها طبولاً كثيره 00 صار لدى كل حارة خمسون طبلاً على الأقل 00

1. الغرابليه : اللذين يصنعون الغرابيل والمناخل من الجلد

مشايخ الحارات سيقودون أبناء حاراتهم حملة المشاعل والطبول 00 من النساء والأطفال والاختياريه حتى تخوم وادي هربيا 00 متى أعطيت لهم الإشاره 00

قال مصطفى :

– حين يرى عسكر الجزار هذه المشاعل تتقدم في اتجاههم 00 ويسمعون قرع الطبول 00 سيعتقدون أن القوات المصريه قد وصلت 00 عندها يولون الأدبار ولن توقفهم إلا أسوار عكا .

شخر فرج السويسي :

– عليَّ الطلاق غير نحصدهم حصِدْ .

اعترض مبارك :

– لن يصدقوا أن قوات محمد علي قد وصلت دون أن يسمعوا هدير المدافع 00 لو أن معنا طوب أو اثنان .

خيم صمت ثقيل 00 لعبت بهم الظنون والهواجس 00 أيُ مصير أسود ينتظر غزه لو انتصر جنود الجزار 00 واستباحوا المدينة تناهت إلى أسماعهم أصوات الصِبيه يزفون الكُلاغاصي

الصليان 00 ماشي
الصليان 00 ماشي

أدركوا أن موكب نظمي بيك يقترب من الدبويه 00 أخيراً دلف نظمي إلى البوابة 00 متلفتاً 00 يبحث عن مكان يحتمي فيه من عبث الصبية فوجئ بهم يتحلقون حول مصطفى الكاشف 00 ألقى عليهم السلام واندس فيهم 00 أطل الصبية من البوابة فرأوا الكبار 00 أدركوا أن الكلاغاصي وصل مأمنه فعادوا أدراجهم .

–166–

قال فرج السويسي :

– غزة كانت تصنع المدافع على أيام تغريبة بني هلال 00 ألم تناشد الجازيه 00 أبوزيد الهارب من معركة غزه أن يعود ليخلص السبايا من أسر الغزازوه

- أبوزيد يا أبوزيد لا تعربش القنا
حامي العذارى البيض يوم الملايم

لكن أبوزيد واصل فراره وهو ينشد :

- اليوم ما هو يومك يا ام محمد
ولا هو يوم النخا والعزايم

قلنا غزه بلدٍ صغيره نكسبونها
تاري ورا غزه أسودٍ ضراغم
ورانا مدافع تهد الحيل والقوى
ودونك خيل هلال ولت هزايم

دعت عليه الجازيه :

- ريتهـــا ما رَّوحـــت بـك
ما روح إلا السرج في الدم عايم

قال رضوان البطش ساخراً :

– لابد أنها مدافع من الفخار00 نابيلون رأى مزاريب الفخار الطويلة على سطوح المنازل فظنها مدافع 00 نحن بحاجة إلى مدافع حقيقيه تفل الحديد .

-167-

وقف الكلاغاصي 00 تخطى أعناق الجالسين حتى صار في منتصف الحلقة وقال لمصطفى :

– أنا عندي مدفع .

هزوا رؤوسهم مشفقين 00

شخر محمد الجرو وهو يضرب كفاً بكف :

– كِمِل الجيش 00 بالحج إقطيش .

نهض جوهر 00 وضع يده على كتف نظمي وسأله :

– أين المدفع يا نظمي ؟

– في السرداب .

ثم أكمل بلهجة عاقله لا تشي بأي جنون أو تخبط .

– الفرنسيون أحضروا هذا المدفع ليقصفوا به سور عكا 00 عند وصوله إلى غزه كانوا قد قرروا الإنسحاب ودبت الفوضى في صفوفهم 00 لم

يجدوا دوابا تكفي لجر المدفع 00 أخفوه في سرداب هيلانه حيث كانوا ينقبون عن الآثار .

هتف مبارك :

– حتى لو صدق نظمي 00 فمن يستطيع تشغيل مدفع كهذا ؟!

قال نظمي :

– أنا 00 هل نسيتم أنني ضابط قول أغاسي 00 تعظيم سلام أفندم 00 أدى التحية العسكريه بطريقة محكمه وبدأ جسده يهتز 00 أدركوا أن النوبة في طريقها إليه .

قال لهم جوهر :

– سأعتني به وأتابع موضوع المدفع بنفسي 00 دعوا ذلك لي 00 وامضوا فيما أنتم فيه .

إقتاد نظمي إلى الخارج وهوعلى وشك السقوط .

-168-

(27)

في صدر قهوة الماوردي المواجهة للدبويه 00 مددوا نظمي بيك على الأريكة المعدة للشاعر 00 كان ينتفض من الحمى 00 ويتصبب عرقاً 00 ثم بدأ يهذي :

- الله سلطان ناصر يتسِم [(1)]
الله سلطان ناصر يتسِم

اغرورقت عيناه بالدموع وكأنه يرى السلطان أمامه 00

– مسكين السلطان 00لا ينام ولا يأكل ويعاني من السعال المتواصل وفقدان الدم بسبب البواسير 00 السلطانه عصمت شقيقته المحبوبه 00

أرسلت طبيبها الإنجليزي ملينجين لمعالجة السلطان 00 فوصف له الأفيون .

نظر إلى الجالسين حول الأريكة وقال كأنه يكاشفهم بسرٍ لا يعرفه سواه

– السلطان يرى في منامه شبح أخيه مصطفى الذي خنق بأمر منه قبل ثلاثين عاماً.

التفت إلى ابن عمه شكري 00

– السلطان يتعذب يا قاسم أغا 00 اهتفوا معي للسلطان :

- الله سلطان ناصر يتسم
الله سلطان ناصر يتسم

انخفض صوته فما عادوا يتبينون ما يهذي به .

1.دعاء باللغة التركية ومعناه الله ينصر السلطان

أحضر شكري البعبوز كأساً من الماء البارد 00 نضح به وجه ابن عمه ودلك جبينه 00 هدأ نظمي بيك 00 انتظم تنفسه 00 أخلد للنوم .

قال شكري :

– سيصحو بعد قليل سليماً معافى .

حين استيقظ كان جوهر ما زال قابعاً إلى جواره .

– أين أنا ؟؟

– أنت في الحفظ والصون يا نظمي 00

طلب له كأساً من الينسون 00 ناوله الكأس .

– ستدلنا الآن على السرداب .

ارتشف نظمي الينسون الدافئ بتلذذ .

– أي سرداب ؟!

– سرداب هيلانه [1]00 الذي خبأ فيه الفرنسيون مدفعهم .

تابع نظمي احتساء الينسون دون أن يتفوه بكلمه 00 حين أكمل فنجانه أشار لهم :

– اتبعوني .

مشوا وراءه إلى الخارج 00 كان الفجر قد طلع 00 داعبت وجوههم نسمات بارده 00 توقف بهم عند حائط المسجد العمري الكبير وأشار بيده :

2. هيلانه : إمبراطوره رومانيه من آثارها في غزه السرداب الذي يصل المعبد الروماني الذي أقيم مكانه المسجد العمري الكبير بشاطئ البحر 00 ويمر من تحت المدينه القديمه .

– هنا 00 تحت هذه الكومة من الحجاره .

قال جوهر لشكري البعبوز :

– خذ ابن عمك إلى البيت واعتن به 00 ريثما أرسل في طلبه .

أشار إلى محمد الجبري :

– اذهب واستدع أهل الحاره 00 أريد حبالاً طويله 00 ودواباً قويه 00 ورفوشاً ومعاول وفؤوساً 00 ورغم أن الحصاد على الأبواب والناس مشغولون بالإعداد له وبحاجة إلى دوابهم 00 إلا أنهم هرعوا لتلبية نداء جوهر 00 يسوقون دوابهم ويحملون ما طلبه منهم 00كان أول من وصل سلامه أبوغوش بحماريه الخضراوين يركب واحداً ويسحب الآخر ثم أولاد شهوان يسوقون بغلهم الحرون 00 محمد الجرو على بغلته 00 ثم فرج السويسي يسوق جمليه وأولاده 00 ثم وصل الباقون بدوابهم وأدواتهم .

أزاحوا كوم الحجاره فظهرت فتحة السرداب 00 رأوا بلاطة مستطيلة تحكم إغلاق الفتحه 00 وحين رفعوها كان الظلام كثيفاً في الداخل فلم يتبينوا شيئاً 00

قال جوهر :

– وسعوا الفتحه .

انهالت الفؤوس والمعاول وتطاير الشرر 00 حين أكملوا عملهم أمرهم جوهر بالتوقف ريثما ينقشع الغبار عن فتحة السرداب .

سطعت الشمس من خلال السحب الداكنه 00 أطلوا ولم يصدقوا عيونهم 00 إذن لم تكن شطحه من شطحات الكلاغاصي 00 كان المدفع هناك في قعر الفتحه رابضاً 00 مهيباً 00 مثل وحش خرافي00

–171–

هبطوا جدران السرداب كالسعادين 00 داروا حول المدفع 00 تحسسوه بأطراف أصابعهم 00 ثم مسحوا عليه بأيديهم 00 فحصوا عجلاته وعنقه وأكتافه 00

أدخل سلامه أبوغوش رأسه في فوهة المدفع وقال للحاضرين :

– لو كانت أكتافي أصغر لأدخلت جسدي كله .

نهرهم جوهر :

– كفى لعباً 00 وعودوا إلى العمل 00 سنهدم جدار السرداب من هنا 00 ونسوي مزلقاناً نجر عليه المدفع بالحبال .

قبل آذان العصر تم تجهيز المزلقان 00 ربطوا المدفع بالحبال وأوثقوها في أكتاف دوابهم .

– جي 00 حا 00 جي 00 حا .

تلوت الدواب يمنة ويسره ولكنها لم تتقدم قيد أنمله 00 فالمدفع ثقيل والحفره عميقه .

انهالت السياط والعصي على ظهور الدواب وانطلق الشخر والسباب 00 أخيراً أسندوا مؤخرات الدواب بأكتافهم ودفعوها جهد الطاقه 00 تصببت جباهم بالعرق واكتظت أفواههم بالشتائم 00

تحرك المدفع 00 صرَّت العجلات الصدئه 00 دارت على نفسها وعلى الأرض دورة كامله 00 تشجع الرجال وامتلأوا بالحميه 00 كرروا المحاوله مرة 00 واثنتين وثلاثة 00 أخيراً بدأ المدفع تقدمه الحثيث 00 إلى أن ظهرت ملامحه فوق سطح الأرض 00 دفعوه إلى الساحة وهم يهللون طرباً 00 كان مطلياً بالشحم الأسود الذي غلظ واشتد قوامه بمرور الزمن فأصبح مثل كتلة الصمغ .

-172-

قال محمد الجرو وهو يتحسس الشحم بإصبعه :

- دهنوه قطران 00 زي الجمل الأجرب .

قال جوهر :

- الطريق إلى وادي هربيا بعيده 00 ودواب الحارة لن تصمد لطول المسافه 00 نريد فزعة من الحارات الأخرى 00 لينتظرنا أبناء حارة الشجاعيه بدوابهم عند مدخل جباليا 00 وحارة الزيتون عند جميزة صالحه .

قال سلامه أبوغوش :

- وحارة الدرج ؟

- حارة الدرج ليست لديها دواب للفلحه 00 لديهم حمير الفخار الهزيله وهي لن تنفعنا بشئ .

انطلق فرج السويسي يعمم الخبر على باقي الحارات 00 بدأ أهل التفاح يجرون المدفع باتجاه جباليا كما طلب منهم جوهر .

حينما وصل المدفع إلى مكمنه في وادي الزيت 00 أعلن مصطفى الكاشف أن الهجوم سيكون ليلة الجمعه 00 وأن على شباب الحارات أن يتجمعوا في وادي الزيت فجر الخميس لكي يتم توزيعهم في النهار على مواقعهم وشرْح خطة الهجوم التي سيتبعونها 00 أما النساء والأطفال والشيوخ من حملة المشاعل والطبول فعليهم الوصول إلى وادي الزيت عصر يوم الخميس يقودهم مشايخ الحارات 00 كل حارة إلى الأماكن المعدة لها .

(28)

ظلت تجوح طوال اليوم 00 تناشدهم ألا يذهبوا وتتوسل إليهم أن يبقوا معها 00 فهم أبناء الترمل والفقر والعازه 00 قاست الأمرين حتى رأتهم يبلغون مبلغ الرجال 00 واليوم قبل أن تزوج أي واحد منهم 00 وتفرح به 00 يذهبون إلى الحرب ويتركونها وحيده .

صرخت زينب البتير :

- لماذا هذه الحرب اللعينه 00 ليأخذ الباشا نصف الغله 00 ليأخذ الغله كلها 00 ليأخذ الحاره 00 والبلد 00 وكل شئ 00 ويترك لي أولادي .

سدت الباب ووقفت فاردةً ذراعيها :

– والله ما بتطلعوا وفي صدري نَفَس .

ضحك حمزه أكبر أولادها وقال لشقيقه بدر :

– أنت من اليدين وأنا من الرجلين .

حملاها واتجها بها إلى غرفة المونه 00 بكت بدور وهرعت إليهما لتخليص أمها 00 ضربتهما بكلتا يديها 00 ولكنهما أبعداها بركلات محكمه وهما يتضاحكان .

أخيراً 00 أدخلا أمهما بيت المونه وأقفلا عليها الباب من الخارج :

– كلي واشربي هنيئاً مريئاً حتى نعود ونفتح لك الباب 00 زير الميه على ايدك اليمين يا حاجه .

تقلدا بارودتيهما وأشارا إلى أخويهما سالم وسلامه :

– هيا إلى الجماقيه حيث يتجمع شباب الحاره .

–174–

تبعهما سالم 00 إنصرفوا يغنون كأنهم يذهبون إلى السامر 00 حاولت بدور فتح الباب فلم تستطع 00 تعرضت في سلامه 00

– حرام عليكم إمكم رح تموت 00 طلعها من بيت المونه وإلا بروح أقول لخالي .

ذهب إلى غرفة المونه 00 وفتح الباب 00 عانق أمه وقال لها :

– كوني عاقله يا أماه 00 لست وحدك التي ترسل أبناءها اليوم إلى الحرب 00 كل نساء الحاره فعلن ذلك .

– قلبي مقبوض يا سلامه 00 وشايفه الموت قدامي 00 الموت إللي أخد أبوكم 00 وأخد جواد أول بختي 00 إبق معي يا سلامه 00 إبق معي 00 أزوجك عدله وأفرح بك 00 لا تذهب برضاي عليك يا سلامه

فكر سلامه 00 ترى أين عدله الآن 00 هل ستذهب مع باقي النساء من حملة المشاعل 00 أم أنها ستلازم أمها وأخوتها الصغار في غيبة خاله الشيخ أنس الذي سيكون على رأس أهل الحاره في وادي هربيا 00 شعر بالحنين إلى عدله وود لو يتزود منها بنظرة قبل أن يذهب إلى الحرب .

أذن المؤذن لصلاة العشاء 00 احتضن أمه مودعاً 00

- إدعي لي يا أمه .

تقلد بارودته وانفلت إلى الشارع 00 سمعها وهي تجهش 00 وتحوط عليه بآية الكرسي .

وصل بيت خاله تحت جنح الظلام 00 وجد الباب موارباً 00 أدرك أن خاله في المسجد الأيبكي يؤم الناس في صلاة العشاء .

دلف إلى البيت محاذراً أن ينبه أحداً من أهله 00 ولكن سوء حظه جعله يرتطم بزوجة خاله .

-175-

قالت تؤنبه :

- إيش حدفك علينا في إنصاص الليالي 00 لا إحم ولا دستور 00 البيوت إلها حرمه يا بن زينب .

أطرق سلامه وقد جاهده العرق 00 مازالت زوجة خاله تناصب أمه العداء 00 هاهي تضبطه متلصصاً 00 لن تكف عن جلده

- نعم يا ابن زينب 00 هوا إحنا ناقصينك 00 بدك خالك روحلوا عالجامع 00وقتيش بدكوا تحلوا عن ظهرنا .

جاءت عدله على صوت أمها 00 وقفت أمامه تماماً وضعت كلتا يديها على كتفيه 00 واقتربت بوجهها منه :

- دير بالك على حالك يا سلامه .

ثم التفتت إلى أمها :

– سلامه رايح عالحرب يا أمه 00 الحرب إللي قامت عشان قوتنا وقوت أهل الحاره 00

تركتها أمها وانصرفت محنقه وهي تلعن البنات وخلفتهم 00 ما إن اختفت زوجة خاله حتى احتضن عدله بذراعيه 00 قبل رأسها وخدها وعنقها 00 كانت هذه أول مره يتعانقان فيها 00 عرفت عدله أنه سيضيع الوقت 00 ألقمته شفتيها 00 ظلا معتنقين 00 ذاهلين عن الدنيا وما فيها إلى أن سمعا صوت الشيخ أنس عائداً من صلاة العشاء 00 افترقا بصعوبة بالغه 00 قبل يد خاله مودعاً ومضى إلى الجماقيه وقد ثملت روحه .

(29)

جمع أبناء فرج السويسي الخمسه دوابهم وغادروا الموارس عائدين إلى الحاره 00 أدخلوا الدواب في البايكه ووضعوا لها العليقه 00 بحثوا في البيت عن شئ يأكلونه .

تمتمت زوجة أبيهم وهي تسمع تدافعهم (إجو اولاد الكشوره) ثم صاحت :

– أمكم تخبز في دار الريفي 00 لم نتوقع عودتكم مبكرين .

قال حسن كبير أبناء ضُرتها :

-عدنا لنشارك في الحرب مثل الآخرين .

نظرت إليهم 00 أحست لأول مره منذ دخلت بيت زوجها ضرةً لأمهم 00 أنها تحبهم وتخاف عليهم 00 وأنها تنتمي إليهم بمقدار ما تنتمي إلى زوجها وأبنائها 00 وأن كل الحروب التي اشتعلت بينها وبين ضرتها أصبحت نسياً منسياً 00 دخلت غرفتها وأخرجت ما خبأته من بيض دجاجاتها طوال الأسبوع 00 وضعته في وعاء غمرته بالماء وانطلقت إلى دار الريفي لتسلقه على ظهر الفرن .

عادت أمهم تحمل لقان الفخار على رأسها 00 فاحت رائحة الخبز الساخن 00 مد حسن يده واختطف رغيفاً قسمه بينه وبين إخوته 00 لاكوا خبزهم بتلذذ 00 وضعت أمهم الطبليه وعليها وعاء الزيت والزعتر 00 والفلفل الأخضر 00 والبصل ودعتهم للأكل .

قال أصغر أبنائها مداعباً :

- ضُبي زعترك يا حجه 00 خالتي عزمتنا والعشا بيض مهروس .

-177-

لم تصدق حتى رأت ضرتها تدخل وفي يدها وعاء البيض 00 ساعدتها في تقشير البيض وغمره بزيت الزيتون .

دخل فرج السويسي 00 فوجئ بهم يتحلقون حول الطبليه :

- لماذا عدتم مبكرين 00 هل انتهيتم من حصاد العفير ؟

أجابه أكبر أبنائه :

- لم يبق في البر أحد سوانا كل الحارات عادت لتشارك في الحرب .

تنهد فرج السويسي 00 كان يتمنى أن يبقوا هناك بعيداً عن هذه الحرب الملعونه .

قال سعدالدين أصغر أبنائه :

- الحصادين قالوا قبل ما نحصد وندرس بدنا نعرف الغله لمين 00 إلنا وإلا للجزار وعساكره .

دعتهم زوجة أبيهم إلى الطعام .

- اتفضلوا بسم الله .

ابتسم السويسي وهو يراها تجود لهم ببيض دجاجاتها على غير عهدها.

- ها أنت تساهمين في المجهود الحربي 00 لعلك أعلنت الحرب على الأتراك وانضممت لمصطفى الكاشف ؟

قال حسن وهو يتلمظ بطعم البيض :

- إنذري يا خالتي إذا رجعنا من الحرب بالسلامه تعملي لنا شوشبرك .

قالت وهي ترى انكبابهم على الطعام :

- إن شاالله يا بن جوزي 00

ثم التفتت إلى فرج وهي تعجب من إحجامه عن الطعام وهو الأكول النهم :

- يا زلمه إلحقلك لقمه 00 إللي بسمي ما بتتي .

-178-

تناول رغيفه واندس بينهم 00 غمس كسرة منه في وعاء البيض 00 دسها في فمه 00 ألحقها بنصف قرن من الفلفل الأخضر 00 قضم قضمة بصل كبيره 00 هرس الطعام في فمه وازدرده .

حين انتهوا من العشاء وضعت أمامهم طبقاً مليئاً بالفقوس .

قال فرج :

- لقد اتفقت مع مصطفى الكاشف على إعطائه ثلاثة منكم فقط 00 وعليَّ الآن أن أُجري القرعه .

احتج أكبر أولاده وهو يغادر البيت :

– أنا خارج القرعه 00 سأذهب إلى الحرب 00 شئتم أم أبيتم 00 تبعه الآخرون واحداً واحداً 00 فلم يبق في الغرفة سوى زوجتيه .

قال لهما :

– إذاً أجري القرعه بينكما .

انتحبت الكشوره :

– مين بجيها قلب تقعد في الحاره وأولادها معرضين للموت 00 والله ما بقعد 00 رجلي على رجلهم وإن جرى إشي يجرى عليَّ قبلهم .

اتجهت إلى السماء بعيون دامعه :

– يارب روحي قبل روحهم 00 يارب ما تدوقني نارهم 00 أنا في عرضك يا حي يا قيوم 00 ثم نظرت إلى زوجها متوسلة :

– يابوحسن ما حد راح يضل في الحاره إلا المتقله 00 والمصغره 00 والعُجَّز[(1)] .

1. المتقلـه : الحامل التي أثقلها الحمل .
المصغره : أم الأطفال الصغار .

قالت الصغرى :

– أنا اتفقت مع زوجة شيخ الحاره أخلي الأولاد الصغار عندها وأروح معاكم .

قال فرج :

– بل تبقين مع أولادك في الحاره 00 الأولاد بحسبوا الحرب لعبه 00 والنسوان عقلهم طاقق .

توعدته بإصرار :

– أنا رايحه 00 يعني رايحه .

تناول كراز الماء وكرع منه حتى ارتوى 00 وضعه جانباً وتجشأ 00 عبقت رائحة البصل في الدار والحاره كلها .

– عليَّ الطلاق بالتلاته ما إنْتِ رايحه .

تناول بندقيته ومضى وهي تبرطم :

– والله عال 00 العجايز يروحوا عالحرب 00 والصبايا ينحكم عليهم يقعدوا في الدور 00 منك لله يابوحسن 00 منك لله .

(30)

في تخوم وادي الزيت المواجهة لمعسكر الجزار حيث تتشابك أشجار الزيتون المعمرة منذ قرون 00 انهمكت سكينه ونساء الحاره في إعداد المشاعل 00 ملأن محالب الفخار بالزيت إلى منتصفها 00

غطسن فيها الفتائل المصنوعة من خرق الثياب الباليه التي أحضرنها معهن 00 أوثقن المحالب في رؤوس العصي .

طافت بهن سكينه وهي تستند على كتف عدله :

- إللي حاملات المشاعل يمشوا قدام 00 وإللي حاملات الطبول يمشوا وراهم على ضو المشاعل 00 الأرض مليانه قريص وعوسج وحجار وفاشور 00 شوفوا الطريق مليح 00 بدناش حد يتعثر 00 ولاحد يتأخر 00 اليوم يومكم يا بنات 00 ارفعوا المشاعل لفوق 00 خليها تبدد الليل إللي خيم علينا العمر كله 00

وصلت إلى حيث تقف الجازيه وولداها الكبيران محمد ومحمود 00 كان الكبير في العاشره من عمره والصغير في الثامنه تأملتهما سكينه باشفاق وحنو وقالت لهما :

- امشو حولين الجازيه 00 بتشم فيكم ريحة أبوكم 00 وبتسمع سنابك حصانو إللي بتدق الصعر والوعر راجعه لوادي الزيت .

***

حمي وطيس المعركه 00 مرت ساعه كامله وعساكر الجزار يقاومون ببساله هجوم مصطفى الكاشف ورجاله 00 مدافع الجزار

-181-

كانت تضرب خبط عشواء 00 مصوبة على أهداف وهميه لا يتبينون منها شيئاً فالليل حالك 00 والسهل فسيح 00

أعطى مصطفى الإشاره لحملة المشاعل وبعدها بنصف ساعه سمع جوهر قرع الطبول تشق سكون الليل 00

بزغ وجه النجاشي 00 ابتسمت حتى لمعت أسنانها في الظلمة الحالكه 00

- (ستقرع طبول كثيرة في غابات الحبشه عندما تعود لتعتلي عرش آبائك وأجدادك يا هيلا) .

ظهرت أضواء المشاعل على شكل حدوة فرس تغطي الأفق الحالك السواد 00 كان المنظر مهيباً ومروعاً 00 حتى أن رجال مصطفى الكاشف توقفوا عن اطلاق الرصاص وقد بهرهم المنظر .

جوهر كان قد انتهى لتوه من دك البارود والخرق 00 مد نظمي فتيلة الإشعال 00 وصوب المدفع وأمرهم بالإبتعاد ، حين سمع قرع الطبول ورأى المشاعل تزحف 00 أشعل الفتيل 00 وهتف :

- هذه للسلطان .

دوى انفجار هائل كقصف الرعد 00 تابعوا القذيفة 00 وقعت على طرف المعسكر00عادوا يدكون المدفع ثانيةً 00 وأعاد نظمي تصويبه 00 بعد دقائق انطلقت القذيفه الثانيه .

- وهذه للجزار .

كان التصويب دقيقاً هذه المره 00 وقعت القذيفه في منتصف المعسكر.

ثم الثالثه 00

- وهذه لحزقيال .

والرابعه 00

-182-

- وهذه لسلمون .

والخامسه 00

- هذه 00

لم يكمل الكلاغاصي 00 انطلقت القذيفه وأخذ يرتعد 00 هتف جوهر :

- ليس هذا وقت النوبة 00 تجلد يا نظمي .

سقط نظمي على الأرض 00 مهدوا له مكاناً بعيداً عن المدفع 00 مددوه على طوله 00 نظروا إلى الميدان 00 كانت النار تشتعل في معسكر الجزار من كل ناحيه 00 هتف جوهر وهو يثبت فتيلة الإشعال :

– دكوا المدفع ثانية .

حين انتهوا من دكه 00 أشعل الفتيلة .

– ابتعدوا 00

دوت القذيفه باتجاه المعسكر .

صفق جوهر بكفيه منتشياً :

– دكوا المدفع ثانيةً 00

هتف قائد عسكر الجزار لمن حوله :

– لقد فعلها محمد علي 00 إليّ بحصاني .

لم يكد يكمل جملته حتى أخذ جنوده يلقون أسلحتهم ويلوذون بالفرار .

قال مصطفى لمبارك :

– انطلت عليهم الحيله 00 انظر انهم يعطوننا ظهورهم 00 لو لم اتفق مع جوهر 00 لصدقت أن المصريين قد وصلوا فعلاً 00

❋ ❋ ❋

–183–

حين طلع النهار 00 تفقدوا معسكر الجزار 00 كان خالياً إلا من القتلى والجرحى 00 سأل مصطفى :

– هل أحصيتم خسائرنا ؟

قال مبارك :

- خمسة شهداء من التياهه ، وأربعة من الترابين ، وشهيدان من الشجاعيه ، وشهيد من حارة الزيتون وشهيد من حارة الدرج .

- ومن التفاح ؟

- أكرمنا الله بثلاثة شهداء 00 سالم أبوغوش شقيق سلامه أبوغوش وإبن أخت الشيخ أنس 00 ومحمد إبن عوده الريفي 00 و 00

سكت مبارك فقام مصطفى وقد أوجس خيفة .

- من يا مبارك ؟

قال فرج السويسي وهو ينتحب كالأطفال :

- رضوان البطش .

عانق مصطفى مبارك الذي بقي ذاهلاً شارداً عمن حوله :

- تجلد يا مبارك 00 واحتسب صاحبك عند الله .

قال جوهر :

- من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر 00 وما بدلوا تبديلا 00

ما كاد يكمل الآية حتى سقط على الأرض .

كان جوهر قد أصيب برصاصة في صدره 00 وكعادته حاول إخفاء إصابته 00 لكنه نزف دماء كثيره في الليل 00 مما أوهنه وأضعف قدرته على الإحتمال 00 حملوه إلى الوادي وطلبوا له الزيناتي .

-184-

انطلق مصطفى يتفقد الجرحى 00 مد يده ومسح جبين أحدهم .

- مازال ينزف 00 ما اسمه ؟

- شكري البعبوز .

- الرجل فريسة للحمى .

أخذ شكري يهذي :

- سألنا باشا بياظ 00وجنوده ينهبون حميرنا المحمله بالفخار : أولان 00 ليش الفخار بِكَسِر بعضو؟؟

لم نحر جواباً 00 قهقه باشا بياظ وتبرع بالإجابه : عشان لولا الكاسوره ما عمرت الفاخوره .

سكت شكري البعبوز هنيهة وهو يعاني سكرات الموت 00 ثم اتجه إلى مصطفى الكاشف :

- لا تحزن يا مصطفى لقد رأيت باشا بياظ الليله وأطلقت النار عليه حتى سقط يتخبط بدمه 00 قل للصرة أميني أن قافلة الحجاج ستمر بسلام 00 ولن يشنق بسببها أحد من الأبرياء 00

أغلق شكري البعبوز عينيه .

وصل نظمي بيك 00 وانهار على جسد ابن عمه يحتضنه ويصرخ :

- قتلوا قاسم أغا وسوف يقطعونه أربعة شقف 00 لن أدع أحداً يقترب منه 00

قال مبارك :

- يا نظمي هذا ابن عمك شكري البعبوز 00 وقد مات شهيداً .

- شكري أخدتو مركب الروم واقلعت .

-185-

- المركب وصلت يا نظمي 00 وشكري نزل منها في يافا وكمل طريقو لغزه 00 كف عن هواجسك 00 الهواجس لا تليق ببطل مثلك 00 لولا مدفعك يا نظمي لاستباحوا غزه 00 وفعلوا بها 00

احتفظ نظمي برباطة جأشه 00 لم يضطرب 00 ولم تعاوده النوبة 00

حدق فيمن حوله كأنه يراهم لأول مره 00 استعرض الوجوه 00 وجهاً 00 وجهاً 00 ثم ترك جثمان ابن عمه ووقف 00 نظر إلى كفيه الملطختين بدم شكري 00 وإلى الساحه حيث تتناثر جثث القتلى والجرحى 00 وأعول :

– زوال 00 زوال 00 زواال .

ظل يردد هذه الكلمه ثم مضى على وجهه يتعثر في الجثث إلى أن اختفى عن أعينهم تماماً .

قال مصطفى لرجاله مشيراً إلى شكري :

– ضعوه مع الشهداء 00 لنصلي عليهم 00 وندفنهم في المكان الذي استشهدوا فيه 00 والله لقد طلبت الشهادة كل عمري 00 فما نلتها ونالها شكري البعبوز .

رفع يديه إلى السماء :

– اللهم لك الحمد إن أخذت وإن أبقيت 00 ولك العتبى حتى ترضى .

على باب مصبنة الكاشف جلس أفندية غزه يرتشفون أكواب القرفه 00 ويسحبون أنفاس نراجيلهم 00

قال محمود الكاشف عم مصطفى وصاحب المصبنة لجاره ومنافسه الشيخ محمد أبو شعبان :

– هل وصلت البضاعة إلى بولاق ؟

– وصلت واستلمها عملاؤنا وهم بحاجة إلى المزيد 00 مصر وحدها تستوعب كل إنتاج غزه من الصابون والدخان .

– وماذا عن الزيت ؟

منذ عودهم محمد علي 00 باشا مصر 00 على استخدام زيت بذرة القطن لم يعد الطلب كبيراً على زيت الزيتون هناك .

وصل الحاج مصطفى المغربي بطربوش مكوي 00 وقنباز روزه 00 تحزم عليه بالغبانيه وفوق القنباز ساكو حرير 00 وقد إنتعل حذاء عالي الرقبه 00 يتوكأ على عصا من العاج 00 تأمله محمود الكاشف وقال ضاحكاً :

– لماذا تتفرد عنا بكل هذه الوجاهه 00 حسبتك الشاه بندر .

عانق المغربي الحاضرين واتخذ مجلسه بينهم 00 تابع الكاشف متودداً :

– سمعنا أنك اشتريت مقدمة آل رضوان 00 هل نبارك لك ؟

أيد المغربي كلامه :

– باركوا لي 00 عجلت في شرائها قبل أن يشتريها صاحبك .

-187-

وأشار إلى الشيخ محمد أبوشعبان متابعاً حديثه :

– لقد اشترى ساقية إم الليمون 00 واشترى كرم التينه من شعشاعه ومن يدري ما الذي ينوي شراءه بعد ذلك 00

ضحكوا 00 قال الشيخ محمد أبو شعبان وهو ينش الذباب بمنشته الفاخره :

– الأرض رخيصه هذه الأيام 00 الفرصة سانحه 00

علق محمود الكاشف :

– لقد خرب الفرنسيون غزه 00 التجار هربوا من الحروب والأوبئة التي اجتاحت الساحل إلى طريق أكثر أمناً 00 صارت القوافل تأتي من السويس إلى القصيمه إلى بئر سبع فالخليل وتعبر الشريعه إلى بلاد الشام والعراق 00 غزه تعبت كثيراً 00 الأراضي والبيوت نزلت أسعارها 00 الدكاكين نصها سَكَّر 00 الله يلطف بالعباد

نفث المغربي دخان أرجيلته وأيد كلام الكاشف :

– لقد زاد الطين بله إمتناع تجار الفرنجه عن مبادلة بضائعهم بالحبوب والغلال 00 وإصرارهم على تعاطي ثمنها نقداً 00 ثم أنهم أغرقوا أسواقنا بصناعتهم المتقدمه 00 فقضوا على كثير من الحرفيين وأصحاب المهن 00 راحت على هالغلابه عمال النسيج 00 والكندرجيه 00 والقزازين 00 والنحاسين وغيرهم وغيراتهم .

عارضه أبوشعبان وهو يعبئ غليونه :

– صلي عالنبي يا زلمه 00 إيش هالحكي الفارغ 00 غزه بخير 00 غزه القمح والشعير والفول والعدس والسمسم والزيتون والعنب والتين وسواقي الخضار 00 غزه بتظل بخير 00 إسمع نصيحتي واكسب فرصة هالرخص واشتري أراضي 00 الأراضي بتنفع ولد الولد .

-188-

دخل المصبنه ثلة من المصريين رجالاًونساء وأطفالاً 00 أخبروا الكاشف أنهم وصلوا تواً من بلبيس 00 وأنهم يبحثون عن عمل

إعتذر الكاشف عن تشغيلهم وأهداهم قطعة من الصابون لكل منهم 00 فرحوا بالهدية ومضوا في سبيلهم .

علق أبوشعبان :

– إنهم يهربون من الجهاديه 00 وصل عددهم ستة آلاف هارب .

قال المغربي :

– أرسل محمدعلي يطلب إعادتهم 00 فرد عليه الجزار أن عليك أن تحضر لأخذهم 00 أجابه محمد علي 00 سأحضر لآخذ الستة آلاف وعليهم واحد 00 يعني أنه سيأخذ الجزار بالإضافة إلى المصريين المطلوبين .

أضاف محمود الكاشف :

– إن الخلاف بين محمد علي والجزار يتفاقم كل يوم 00 منذ رفض عبدالله باشا تسديد ما دفعه محمد علي ترضيةً للسلطان لكي يعيد الجزار إلى ولاية صيدا غداة حصاره لدمشق 00 ثم أن الجزار منع تصدير بذور التوت إلى مصر 00 ومحمد على يعتمد على هذه البذور في صناعة الحرير .

قال أبوشعبان :

– سمعنا أن الجزار ضالع في تهريب البضائع إلى مصر مما ألحق أضراراً بدخول الجمارك المصريه.

فوجئوا بدخول مولانا القاضي 00 قاموا للترحيب والمعانقه 00 أفسحوا له مكاناً للجلوس 00 لكنه لم يجلس كان يبحث عن مصطفى 00 سأل عمه بلهفة :

– أين أجده يابوعلي ؟

– تجده على ظهر جواده 00 إنه لم يدخل المصبنة منذ ولي أمر الناس 00 ولم نعد نراه إلا لماما 00

قال القاضي :

– لم تلد الوالدات مثل مصطفى 00 يا بوعلي بلغه تحياتي ودعائي له بالنصر والغلبه 00

إنصرف مولانا القاضي 00 تابعه أبوشعبان بأنظاره حتى اختفى 00 ثم دندن :

يا بوعلي مش كل الأيام مريَّه
ولا كل عام يشابه عام
ولا كل من لف العمامه يزينها
ولا كل من حبلت تجيب غلام

توجه إلى الحاضرين وعلى وجهه علامات الدهشه :

– ما الذي يجري في غزه ولا نعرفه ؟ بالأمس دعا إمام المسجد الكبير في خطبة الجمعه للسلطان ولمحمد علي قهرمان السلطنه 00 وطلب من الأهالي الوقوف خلف مصطفى الكاشف صفاً واحداً كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً 00 واليوم يهرع القاضي للبحث عن مصطفى ويرجوك أن تبلغه تحياته ودعاءه 00 أما المفتي فإنه يلهج بذكر مصطفى في كل ملأ يحضره 00 ما الذي حدث ؟

قال المغربي :

– الأمر في غاية السهوله والوضوح يا أفنديه 00 وصل مبعوث من محمد علي إلى غزه 00 ودفع للمفتي والقاضي ونقيب السادات والأئمة ومشايخ الطرق رواتبهم عن عام كامل 00 فتبين لهم الرشد من الغي .

قاد فرج السويسي بقرته إلى سوق الجمعه آملاً أن يجد لها الثور المناسب 00 قال لزوجته وهو يغادر الحوش :

– إحنا في عيد لد 00 والمره 00 والبقره إللي بتحمل في هالوقت بطلع نسلها مليح

حين وصل إلى السوق ربط بقرته في السياج وذهب يتفقد الثيران المعروضة للتشبيه

اختار ثوراً أسوداً عفياً وأخذ يفاصل صاحبه 00 طلب الرجل خمسين قرشاً وعرض فرج عشرين قرشاً 00 تدخل أبوعواد الجنابظي فأنهى الصفقه بثلاثين قرشاً 00 سحب الرجل ثوره ومضى يتبعه نفر من أهل السوق والعواطليه 00 أنهى الثور عمله .

قال أبو عواد وهو يتسلم النقود :

– ليت لنا صحة هذا الثور وعافيته 00 إنه رغم تقدمه في السن اعتلى ثلاث بقرات منذ الصباح ولعله يكمل العشره قبل انتهاء السوق 00

ماشاالله عليه 00 مثل خيل البرامكه 00 شايب ومهر 00 ماذا تطعمه يا رفاتي ؟

رد صاحب الثور :

– تبن وشعير 00 عليك بالتبن والشعير واغشى إم عواد .

أغرقوا في الضحك 00

شق محمد الجبري الجمع وهو ينادي على فرج :

– يا بوحسن 00 مصطفى الكاشف ينتظرك في سوق الخيل .

– مصطفى هنا ؟!

– لقد تفقد الأسواق اليوم واطمأن بنفسه على الحسبه 00 سار مع المحتسب وقدامهم عشره من الأعوان 00 ناس حاملين العصي 00 وناس حاملين الفلق 00 وناس حاملين المكاييل والموازين والأواق 00 وما حدا باع غلَّه بسعر زايد 00 ولا بوزن ناقص 00 وبعدين ترك المحتسب يشوف شغلوا 00 وراح على سوق الخيل .

ناوله السويسي رسن البقره وأمره أن يعود بها إلى الحاره 00 انطلق إلى سوق الخيل 00 شق طريقه بصعوبة في سوق الجمعه بين أقفاص الدجاج والحمام والبط وبسطات الثياب والفاكهه والخضار 00 كان الزحام على أشده 00 ونداءات باعة السوس والخروب والقهوه تختلط بالرغاء والثغاء والصهيل 00 وأيمان أصحاب البسطات وطلاقاتهم تحاول حسم تردد المشترين 00 الذين يقلبون سلعهم ويساومون على ثمنها حتى البشلك الأخير 00 اجتاز سوق الغنم وسوق الجمال وسوق الحمير 00 أخيراً وصل إلى سوق الخيل .

كان مصطفى يتأمل مهرة أصيلة جاء بها بدوي من السواركه 00 حمراء ضامرة طويلة الساقين أعجبت مصطفى 00 لكن صاحبها غالى في سعرها 00 تدخل السويسي وقال للبدوي :

– نعطيك ألف قرش 00

قال البدوي :

هادي صقلاويه 00 صبحه 00 ومحجَّله 00 أنظر إلى البياض في

مفرقها وسيقانها وهذا الصفاء في عينيها 00 ثم أذنيها القصيرتين ثم 00

أراد البدوي أن يطنب في أوصاف مهرته 00 فقاطعه فرج السويسي :

– عدها خضرة دياب بن غانم 00 إكسب هالسومه قبل السوق ما يخرب 00 عليَّ الطلاق بالتلاته ما إنت بياع .

– العوذ بالله 00 أنا بياع ومهاود 00 لكن عوايد العرب تاخد فوايد على الخيل الأصايل .

قال السويسي :

– إذا على الفوايد 00 خود أول بطن فايده .

رد البدوي :

– بل بطنان 00 وأختار الحصان الذي تتجب منه .

وافق مصطفى وتمت الصفقه .

قال لفرج :

– عسى أن يرزق جوهر السلامه 00 فيطبعها لنا 00

حين عادوا إلى الدبويه وجدا مبارك ومعه رسول من مصر يحمل النبأ الذي انتظرته غزه طويلاً :

" المصريون احتلوا قلعة العريش وهم يزحفون على غزه 00 قائدهم كوجوك ابراهيم باشا ابن أخ محمد علي " .

ناوله مبارك رسالةً من عبد الوهاب وتابع :

– يقول عبدالوهاب أنه سيصل غزه بعد ثلاثة أيام 00

قال مصطفى الكاشف لمبارك وهو يشير إلى السراي خلفه :

– لم يدخل أحد الدبويه منذ غادرها حسين أغا 00 أؤمر الرجال بتنظيفها واعدادها لكجك ابراهيم 00

-194-

علق السويسي ضاحكاً :

– راح فال 00 وإجا فال .

قال سلامه أبوغوش :

– يقولون أن عسكر ابراهيم باشا حين وصل العريش 00 ما أحد منهم مد إيدو على شجره أو بسطة فاكهه 00 وما عمل تقله على أحد 00 ولا نظر إلى حرمه أو ولد 00 ولا أخذ من الناس ذخاير أو مؤن 00 كل ذخايرو ومؤنو من مصر حتى الماء يدفعون ثمنه 00 والعسكر والشواش بصلوا وما بقطعولهم فرض .

أكد محمد الجرو بلهجة الواثق :

– هاي المسلمين إللي بدهم يقيموا دولة الإسلام .

هتف الشيخ أنس :

– إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم 00

قال مصطفى لمبارك :

– سيدخلون غزة يوم الجمعه ؟؟ أطلق منادٍ يعلم الناس أن غزه صارت تبع مصر تسالم من سالمت وتحارب من حاربت 00 وأن عملة مصر ماشيه 00 ورايتها مرفوعه 00 وكلمتها مسموعه 00 وخذ البيعة من الناس لمحمد علي 00 المجاهد الغازي في سبيل الله 00 انصبوا الزينات 00 وأقواس النصر 00 وارفعوا الرايات 00 سيكون شِنِّك عظيم لم تشهد غزه مثيلاً له 00

ارتدت غزه أبهى حللها 00 زينت الشوارع 00 أقيمت أقواس النصر 00 رفرفت الرايات 00 انتصبت حلقات الدبكه في الساحات 00 رقصت الخيل الأصيله على أنغام الشبابات 00 ثلاثة أيام بلياليها والأهازيج تشق عنان السماء :

صُفوا الخيل على الميدان
من غزه لأبواب الشـام
***
ابراهيم باشـا يا منصـور
وبسـيفك هـدَّينا الســور
***
ابراهيم باشــا يا متولِّــي
الفاتحه عاروح العثمللـي
***
ابراهيم باشا جاب النصْر
وصدورنا دروعك يا مصر
***
صفوا الخيل على الميدان
مـن غـزه لأبـواب الشـــام
***

-196-

أبناء الحارات الذين يجدّون الزيتون في الوادي 00 طلبوا من الجبري أن يستأذن لهم جوهر في تأجيل القطاف أسبوعاً حتى يتسنى لهم المشاركة في استقبال المصريين .

حين دخل الجبري البيت 00 رأى مرجانه تنتحب في الفناء 00 والجازية تحاول تهدئتها 00 طلب الدخول على جوهر 00 فأومأت له الجازيه .

كان جسد جوهر العملاق مسجى في فراشه منذ جرح في هربيا 00 ورغم أن الزيناتي بذل كل جهده في تطبيبه وواصلت مرجانه

والجازيه الليل بالنهار في العناية به وتمريضه 00 إلا أن جراح صدره لم تلتئم 00 ظلت حالته تسوء يوماً بعد يوم .

ألقى الجبري السلام فلم يرد جوهر 00 ظنه نائما 00 اقترب منه وحدق في وجهه كانت عيناه مفتوحتين على سعتهما 00 حرك الجبري كفه أمام عيني جوهر فاضطربت رموشه البيضاء .

قال الجبري :

– لا حول ولا قوة إلا بالله 00 اللهم خفف عنه 00وارحمه برحمتك الواسعه 00 إن سيدي جوهر لم يعد يسمع أو يتكلم 00

خرج والدموع في عينيه 00 عرض الأمر على الجازيه قالت له :

– دعهم يذهبون 00 وبلغ أبي أن جوهر 0000

أرادت أن تقول في النزع الأخير ولكن الدمع طفر من عينيها فاستندت إلى أكتاف مرجانه وأجهشتا بالبكاء 00 خرج الجبري يتعثر في أذياله .

حين وصل ساحة الشهداء على أطراف حارة الزيتون 00 كان الإزدحام على اشده 00 لم يستطع الوصول إلى المنصه حيث جلس كوجوك ابراهيم باشا يستعرض الجيش وعن يمينه مصطفى الكاشف وعن يساره مبارك ومن خلفه القضاه والأعيان .

–197–

تسلق الجبري كما فعل غيره شجرة جميز تشرف على الساحه 00 وأطل على المشهد 00 كانت عساكر ابراهيم باشا قد بدأت تشق الساحه في طريقها إلى المدينه 00 وسط الهتافات 00 دخل ألاي الورديان [1] وحين سار أمام المنصة أدى التحية للباشا 00

المدافع التي اصطفت بطواقمها على طريق العسكر أطلقت قذائفها في الخلاء تحية للموكب 00 ارتجت الأرض تحت أقدام الناس .

نظر الجبري إلى باقي ألايات الجيش فلاحظ أن كل ألاي يرتدي حلة مختلفة عن سابقه 00 وأن الحلل جديده وبهية وألوانها متناسقه تأخذ

بالألباب 00 وأن مشية العسكر منظمة وفيها خيلاء واعتزاز لم يكن في عسكر السلطان الذين يخبون بملابسهم الرثه ويمشون حيثما اتفق 00 رغم أن الهم أثقل صدره منذ رأى جوهر إلا أنه أحس بالإنشراح .
بعد لواء الورديان وصل الخياله 00 تتقدمهم كوكبه من فرسان الهنادى وعلى رأسها فارسٌ كالليث الغضنفر 00 ما أن تبينه الجبري حتى هتف :

– سيدي وهبه 00

أدى عبدالوهاب التحية للباشا وواصل طريقه وهو يكفكف لجام جواده .

همس الباشا في أذن مبارك :

– هل عرفته ؟

ابتسم مبارك وقد ملأه الفخر والإعتزاز 00 تابع الباشا :

1. الورديان : الحرس

– عبدالوهاب واحد من أبطالنا الميامين 00 كلفناه بتنظيم المتطوعين الغزازوه 00 حتى إذا اكتمل تدريبهم 00 قادهم إلى أسوار عكا 00 للحاق بقوات عمي ابراهيم باشا الكبير .

قال مبارك :

– كلنا فداك يا باشا وما بنطلع من خاطرك .

حين انتهى استعراض القوات التفت الباشا إلى مصطفى الكاشف :

– يا مصطفى أرسل مُنادٍ في غزة وقراها بالأمن والأمان 00 والعدل والإحسان 00 وأننا نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر 00 وأن الناس

سواسية لا فرق بين مسلم وذُمي 00 ولا بين فقير وغني 00 ولا بين ضعيف قوي 00 وأن على القضاه أن يعودوا إلى وظائفهم وكل عامل إلى عمله 00 وأننا نبطل السخره والظلم ونهب أقوات الناس 00 وأن كل إنسان من دون حقه .

* * *

قام الباشا يحف به أعوانه متوجهين إلى الدبويه 00 حيث سيقضي الباشا ليلته 00 أوصله مصطفى إلى هناك 00 واطمأن بنفسه على راحته وراحة ضباطه وقادة جنده ثم عاد إلى مبارك في ساحة الشهداء حيث يتجمع مشايخ الحارات والعلماء وأعيان المدينة 00

وجد مبارك قد أنفذ أوامر الباشا 00 وأنزل قواته 00 كل قوة في الموقع المخصص لها 00 مؤمناً لها الماء والقوت والعليقه 00 لاحظ أن الحزن يبدو جلياً على وجه مبارك فسأله عما يحزنه في يوم كهذا 00

قال مبارك :

-199-

- جوهر يجود بأنفاسه الأخيره 00 ونحن هنا في شغل عنه 00 لقد هرع إليه عبدالوهاب 00 وأرجو أن تأذن لي في اللحاق به إلى وادي الزيت 00

قال مصطفى وقد هزه الخبر :

- إنا لله وإنا إليه راجعون 00 أذهب معك 00 ونقضي الليلة عنده 00 عسى الله أن يلطف به .

على باب البيت الذي بناه يونس 00 كان أهل الوادي يتجمعون تحت أشجار الليمون 00 يحيطون بعبدالوهاب ويواسونه وقد خيم عليهم حزن فادح .

أي عالم هذا الذي سيخلو من جوهر 00 سيد الوادي وحامي حماه ؟؟!!
عانق مصطفى الحاضرين واتخذ مجلسه بين مبارك وعبدالوهاب .
– كيف هو ؟
قال عبدالوهاب :
– لا يعي شيئاً مما يدور حوله 00 ولم يتعرف عليَّ 00 تقول مرجانه أن هذا حاله منذ شهر تقريباً 00 يصحو بين الفينة والفينة على قرع طبول بعيدة في الغابات 00 يزعم أن قرع الطبول يقترب 00 يلفظ كلمات قليلة بلغة أهل الحبشه 00 ثم يغيب 00
نهنه فرج السويسي دموعه :
– علي الطلاق جوهر أغلى من أولادي السبعه 00 تمنيت لو أنني أفتديه بنفسي .
رد عليه الجبري بحسرة وتفجع :
– ماذا أقول أنا ؟ لم أعرف لي أباً أو أخاً أو عماً أو خالاً سواه 00 كان كل شئ في حياتي 00

–200–

هطلت دموع عبدالوهاب غزيرة وهو يتذكر كيف كفله جوهر ورباه حتى بلغ مبلغ الرجال00 وكيف كفل أبناءه وزوجته في غيابه 00 وقال كأنه يحدث نفسه :
– هذا رجل لا يجود الزمان بمثله 00 قضى حياته كلها يعطى ولايأخذ 00 أعطى ليونس ، ولأهل الحاره ، ولسكان الوادي 00 وأعطاني أنا وأجزل لي العطاء 00 ثم هاهو يفتدي غزة بدمه وروحه 00 فأي فداء ؟! وأي وفاء ؟!
رق مصطفى لدموع عبدالوهاب :
– أذكروا الله .

هتف الجميع :

– لا إله إلا الله 00

خيم صمت فادح 00 كان الصبح قد بدأ يتنفس 00 وفي الغبش ظهر شبح الكلاغاصي 00 وقف أمامهم بأسماله الباليه 00 وزعق بعالي صوته :

– زوال 00 زواااال .

كان هذا دأبه منذ هام على وجهه بعد معركة هربيا 00 نهره فرج السويسي :

– أغرب عنا يا نذير الشؤم .

هب واقفاً يريد أن يمسك بتلابيبه 00

– عليّ الطلاق 00

لم يكمل 00 تحجر مكانه يحدق بباب البيت 00 كان جوهر يقف بقامته المديده 00 مستنداً إلى مصراع الباب 00 حبسوا أنفاسهم من المفاجأه .

–201–

هبت نسمات الصباح على شجيرات الليمون فتضوعت رائحة زكية عبق بها المكان 00 انبلجت الشمس 00 أحسوا بفيض النور يغمرهم شيئاً فشيئاً 00 وسمعوا تسابيح تلف الأرض والسماء 00 كأنما هبطت ملائكة الرحمه 00 تذكر مبارك يوم قضت فاطمه 00 فأخذ يرتجف .

لمس بيده ذراع عبدالوهاب ولمس باليد الأخرى ذراع مصطفى 00 كأنما يستمد منهما الثبات والطمأنينه 00

تقدم جوهر نحوهم وهو يترنح 00 ظل يخطو خطوة 00 ويقف بعدها ليستعيد توازنه 00 ثم يخطو ثانية 00 حتى صار أمامهم تماماً 00عارياً إلا من إزار يلف حقويه 00 وضمادة تستر ضلعه الأيسر 00

إختلط بياض شعره المفلفل ببياض لحيته محيطاً وجهه بهالة من النور 00 نصب قامته كما ينتصب الرمح .

هتف مصطفى :

– لله درك يا جوهر 00 ما أجملك .

رفع جوهر ذراعه اليمنى على طولها 00 سقطت الضماده عن صدره 00 فسطع جرحه كالوشاح .

تأملهم بنظرة تفيض محبة ونباله 00 وهتف :

– زي ماران دو .

التصقت الجازيه بمرجانه التي وقفت على الباب مشدوهة 00 وسألتها بهلع :

– ما الذي يقوله يا خاله ؟

أجابت مرجانه وقلبها يتفطّر :

– يقول 00 أنه الملك .

لم تكد تكمل العبارة 00 حتى رأته يسقط على الأرض ميتاً 00

-202-

فهرس الشخصيات

- عبدالوهاب / وهبه " إبن يونس من فاطمة أخت مبارك شيخ التفاح "
- جوهر " كان جنيناً في بطن أمه النجاشي عندما خطفها تجار الرقيق من قافلة لأحد ملوك الحبشه "
- الخاتون " إبنة الصدر الأعظم وزوجة التفكجي باشا قائد القابيقول "

- التفكجي " وكيل متسلم غزه وقائد القوات المرتزقه التي شكلها الوالي "
- مرجانه " جارية حبشيه اشتراها يونس لخدمة زوجته فاطمه 00 ثم تزوجها جوهر"
- الجازيه " بنت مبارك 00 جدها لأبيها رمضان الهواشمه شيخ حارة التفاح وجدها لأمها ابن أخيه سالم الهواشمه 00 كان شريراً 00وأمها ليلى "
- نظمي بيك " غزاوي تخرج من الكليه الحربيه في اسطنبول 00 وخدم أحمد باشا الجزار وتعاون مع الفرنسيين أثناء حملة نابيلون "

-204-

- الجزار " أحمد باشا " والي صيدا
- الجزار " عبدالله باشا والي صيدا بعد ثلاثين عاماً 00 لا يمت للجزار الأول بصلة القرابه ولكنه من نفسه هذا الإسم ليرعب الناس "
- روفائيل فارحي/ يهودي " أمين الخزانه في دمشق "
- سلمون فارحي/ يهودي " المستشار المالي للسلطان في الآستانه
- حزقيال فارحي/يهودي " أعظم صيارفة اسطنبول "
- حسن البعبوز " والد نظمي بيك القول أغاصي "
- قاسم أغا العقيلي " شريك نظمي بيك في الصليان "
- نظله خانم " زوجة فران في اسطنبول "

- مسيو بازيلي " دبوماسي روسي "
- مسيو باسيه " قنصل هولندا في حلب "
- رستم بيك " وكيل باشا بياظ في اسطنبول "
- كوجوك علي أوغلو " باشا بياظ "
- مصطفى الكاشف " قائد الثوره على الأتراك في غزه "
- رفاعه الطهطاوي " إمام الجيش المصري وأحد علماء المسلمين المستنيرين "
- مبارك " شيخ حارة التفاح "
- ليلى بنت سالم " زوجة مبارك "
- سعديه " حفيدة سكينه "
- سكينه " زوجة حسان السلامين الملقب بالفار"
- الشيخ أنس " إمام المسجد الأيبكي في حارة التفاح"

-205-

- سلامه أبوغوش " ابن أخت إمام المسجد الشيخ أنس "
- عدله " ابنة الشيخ أنس وخطيبة سلامه "
- فرج السويسي " صديق شيخ الحاره ورفيق صباه "
- رضوان البطش " صديق شيخ الحاره ورفيق طفولته "
- محمد علي " والي مصر "
- تاج الدين الخروبي " أحد علماء المسلمين في فلسطين 00 بطل المقاومه ضد الإحتلال الفرنسي وضد ظلم الأتراك "
- الشيخ محمد سكيك " قاضي غزه "
- السباهي / الأقطع " قائد فرسان القابيقول 00 المرتزقه الذين يعينهم الولاه "

- تيمور الضرغام " ملتزم غزه قبل الحمله الفرنسيه "
- شكري البعبوز " بائع فخار متجول "
- الصره أميني " مرافق قافلة الحج المعين من السلطان للصرف على القافله وتأمين طريقها "
- نواره " زوجة رضوان البطش وابنة عمه "
- الكشوره " الزوجه الأولى لفرج السويسي "
- زوجة عوده الريفي
- تمام " زوجة محمد الجرو "
- سريه " بنت رضوان البطش "
- المنلا عارف بيك " أكبر علماء الدين في اسطنبول "
- عزت بيك " ياور السلطان "

-206-

- شراب أميني " كبير السقاه في قصر السلطان
- خسرو باشا " من رجال السياسه في اسطنبول "
- خليل باشا " قائد الأسطول وصهر السلطان "
- اسماعيل باشا " والي صيدا ومقره قلعة عكا "
- سليمان باشا " قائد عسكر الجزار الذي صار والياً في عكا بعد اسماعيل "
- داوود / يهودي " ابن روفائيل فارحي أمين الخزانه في دمشق "
- ناثان / يهودي " أحد أبناء روتشيلد 00 حضر معركة واترلو وعاد بعدها إلى لندن ليعلن أن نابليون إنتصر 00 انهارت أسـعار

السندات والأسـهم فـي البورصـه فاشتراها بثمن بخس 00 وفي اليوم التالي وصلت أنباء هزيمة نابليون واستعادت الأسهم والسندات قيمتها فباعها و كسب في يوم واحد خمسة ملايين جنيه "

- محمد الجرو " فلاح وأحد وجوه حارة التفاح "
- مريم " زوجة شهوان المغني والشاعر وأحد أبطال العنقاء "
- عائشه " زوجة مصطفى الكاشف "
- عبدالرؤوف باشا " والي دمشق "

-207-

- محمد سليم باشا " تم تعيينه والياً لدمشق مكان عبدالرؤوف باشا 00فقتله الثوار "
- عرابي الشوملي " قبضاي حارة العماره "
- السقا أميني " تاجر سوري مقيم في اسطنبول "
- الخواجه كوهين " نسيب حزقيال فارحي " يهودي
- جوزال " أحد جواري القهرمانه "
- ابراهيم باشا " ابن محمدعلي 00 قائد عسكري 00 نابغ 00 كان يحلم بإقامة دوله عربيه تحكمها عائلته "
- سليمان الفرنساوي " كان ظابطاً00 في جيش نابليون بونابرت اسمه سيفا 00 تطوع للعمل

كمدرب في جيش محمد علي 00 ثم
توالت ترقيته حتى صار رئيساً
للأركان 00 ظهر نبوغه العسكري
وبسالته في عدة مواقع "

- حنا البحري " من عائلة سوريه احترفت خدمة الولاه
والعمل في دواوين الحكومه "
- محمد الجبري " تيتم في طفولته 00 فكفله جوهر وربته
مرجانه في بيتها بوادي الزيت "
- صالح عطاالله " فلاح من سكان وادي الزيت "
- حسين أغا " متسلم غزه ويافا "
- الزيناتي " طبيب مغربي يداوي بالأعشاب والطب
العربي"

-208-

- زينب البتير " الزوجه الأخيره لأبي غوش 00 أنجبت
أربع أولاد 00حمزه وبدر وسالم
وسلامه 00 وبدور "
- محمود الكاشف " عم مصطفى الكاشف وصاحب مصبنه"
- محمد أبوشعبان " وجيه ملاك وصاحب مصبنه "

مصطفى المغربي " ملاك "

-209-

صدر للشاعر

نوديت باسمي

ديوان شعر

دار الفارابي

بيروت عام 1980

* * *

العنقاء (النسخة العربيه)

روايــة

دار سبيل للنشر

ملبورن – استراليا عام 1989

* * *

العنقـاء (النسخة الإنجليزيه)

" ترجمت على نفقة وزارة الثقافة الأسترالية "
وصدرت عن دار PAPYRUS PUBLISHING HOUSE
ملبورن – استراليا 1994

❋ ❋ ❋

متى تُرِكَ القطا
ديوان شعر
دار النورس للنشر
غزه عام 1996

❋ ❋ ❋

ديـرة عشـق
ديوان شعر بالعامية الفلسطينية
دار النورس للنشر
غزه عام 1996

منشورات دار النورس

للشاعـر تحت الطبع

" زهرة الحبر سـوداء "
مجموعة قصائد للشاعر نشرت باللغة الإنجليزية
ويعاد نشرها مع الأصل العربي للقصائد .

دار النورس للنشر – ص.ب : 512
غزة – فلسطين الطبعة الأولى 1996